الصلات التجارية بين عمان وبلاد المغرب في العصر الإسلامي

أسسها، مظاهرها ونتائجها على البلدين

ملخص

احتلت عملية المبادلات التجارية بين عمان وبلاد المغرب في العصر الإسلامي الوسيط مكانة متميزة، لذلك سعينا في هذا البحث إلى تحليلها عبر ثلاث محاور:

في المحور الأول، تم تحليل الأسس التي ارتكزت عليها العلاقات التجارية بين الجانبين، فتبين أن الموقع الاستراتيجي لكل من عمان والمغرب، وتكاملها الجغرافي الذي ربط الخليج العربي بالبحر المتوسط، وتعدد الطرق التجارية، وتشجيع أرباب الدولة في البلدين، وما ساد فيهما من أمن واستقرار، واستناد المعاملات التجارية على مرجعية دينية سليمة، إلى جانب مهارة الإنسان العماني والمغربي وعلو كعبهما في مجال الملاحة والتجارة، فضلاً عن الروح الأخلاقية التي طبعت تجار البلدين ونجاح الحركة الأباضية في تأسيس دولة أباضية بالمغرب الأوسط، كل ذلك شكل اللبنات التي قامت عليها الصلات التجارية بين عمان وبلاد المغرب.

أما المحور الثاني، فقد تمت فيه دراسة المبادلات التجارية وفاعليتها، فتم -اعتماداً على نصوص متنوعة- إبراز توافد التجار العمانيين على المغرب والسلع التي كانوا يحملونها معهم إلى الأسواق المغربية، فتم عرض هذه السلع وكيف تمكنت الأسواق المغربية من امتصاص الحركة التجارية المكثفة. وأبرزت الدراسة كذلك أن عمان بمواردها الاقتصادية جلبت اهتمام التجار المغاربة الذين قصدوا مدنها خاصة صحار ودبا وحملوا إليها كل أنواع السلع المغربية.

بينما خصص المحور الثالث لتحليل أثر المبادلات التجارية في تطوير البلدين على جميع المستويات، فأبرزنا على مستوى الأثر الاقتصادي أن التبادل التجاري بين أباضية المغرب وعمان مكّن من تنمية اقتصاد البلدين وانتعاش الأسواق وتوفير رؤوس أموال ضخمة بفضل ذهب السودان. وقد تمكنت عمان على الخصوص من كسب قاعدة اقتصادية هامة في المغرب الإسلامي مكنتها من مدّ حركتها التجارية نحو السودان الغربي والشرق الأقصى على السواء، وأصبحت العملة تضرب بعيار الذهب في المدن المغربية. وانعكس أثر الصلات التجارية على المجال العمراني فكثر بناء الدور و المرافق الاقتصادية وتحضرت المدن، وتمخض عن ذلك نمو ديموغرافي بسبب إقبال التجار من مختلف الجنسيات على البلدين مصابين معهم عائلاتهم أحياناً.

أما على المستوى السياسي فإن عمان-بفضل أحكام صلتها ببلاد المغرب- حرّمت السلطة العباسية من موارد هذه المنطقة،فزادت من إضعافها وبالتالي دعّمت استقلالها. كما زاد المذهب الأباضي انتشاراً ووصل إلى بلاد السودان.

وتأثر المجال الثقافي كذلك بالحركة التجارية إذ كان معظم التجار من العلماء الأباضيين، مما ساهم في شيوع الحركة العلمية في البلدين معاً.

انصبّ اهتمام معظم الباحثين في حقل التاريخ العماني على معالجة القضايا السياسية والمذهبية للحركة الأباضية أكثر من اهتمامهم بجوانبه الاقتصادية، خاصة المجال التجاري[١]، رغم ما يكتسبه هذا المجال من أهمية بالغة في المشروع السياسي للدعاة الأباضيين، حيث كان هؤلاء يقومون بالدعوة لمذهبهم، متسترين وراء التجارة للتمويه على خصومهم السياسيين، والإفلات من بطش الأمويين والعباسيين، حتى أن معظم المناطق التي لجأوا إليها أصبحت فيما بعد نواة لمراكز تجارية قوية شكلت خانة هامة في خارطة الاقتصاد الإسلامي[٢].

كما أن التجارة نفسها شكلت مورداً هاماً استندت عليه الدعوة الأباضية لتموين ذاتها وخلق قاعدة مادية تكفل لها فرص النجاح، خاصة أن الدعاة العمانيين المتواجدين في البصرة كانوا يحرصون كل الحرص على تثبيت أقدام حركتهم بالمال الحلال المشروع، فوجدوا في التجارة هذا المبتغى الذي ينسجم مع مبادئهم الدينية. لذلك يخيل إلينا أنه من الصعب الفصل بين الدعوة الأباضية والنشاط التجاري الذي اضطلع به رجالها، ولا غرو، فإن أحد المستشرقين المتخصصين في المذهب الأباضي عدّ الكتب المذهبية الأباضية ذاتها مصدراً لدراسة النشاط التجاري لأباضية المغرب ببلاد السودان.[٣] وفي نفس المنحى، خلص أحد الباحثين[٤] إلى القول بأنه «لا يسمح أبداً بوضع حدّ فاصل بين الدور الذي قام به التجار من جهة، وبين العلماء ودعاة الإسلام من جهة أخرى». وتتضح وجاهة هذا القول إذا علمنا أن التجار الأباضيين دأبوا على نهج قاعدة المزج بين ممارسة التجارة ونشر الإسلام في الأصقاع التي كانوا يرتادونها.

وإذا كان ارتباط النشاط التجاري بالدعوة الأباضية حقيقة لا يرقى إليها الشك، فإن الأبحاث المعاصرة تكاد تخلو من أي محاولة للنبش في العلاقات التجارية بين عمان وبلاد المغرب التي نشط فيها الدعاة الأباضيون[٥]. كما أن المصادر التاريخية- بما في ذلك المصادر الأباضية – لم تفصح "للأسف بما فيه الكفاية" عن الدور التجاري

للدعاة العمانيين في مختلف المواطن التي حطوّا فيها الرحال، ومن بينها بلاد المغرب التي تهمنا في هذا المبحث، وهو أمر مألوف لمن عرك تاريخ البلدان الإسلامية النائية الواقعة في أطراف دار الإسلام، فالنصوص تتّسم بالعموميات والتشتت، وتقتصر على ذكر النتائج، ولا تسمح للباحث بتكوين فكرة شمولية عن السلع المتبادلة بين تجار عمان ونظرائهم في بلاد المغرب. كما أنها لا تميط اللثام إلا بكيفية شاحبة عن تواجد بعض التجار العمانيين في المغرب، مما يجعل مهمة الباحث شاقة وعسيرة، وما عليه إلا أن يعمل على لمّ شتات النصوص المبعثرة في أمهات المصادر من كتب وسير مشايخ ونصوص البلدانيين والرحّالة، ويسبر غورها بمنتهى الدقة والصبر حتى يكوّن لها صورة عن واقع الصلات التجارية بين البلدين.

في ضوء هذه الرؤية، سيتم التركيز في هذه الدراسة على الأسس التي قامت عليها هذه العلاقات التجارية، لنعالج بعد ذلك مظاهرها وما أفرزته من آثار اقتصادية وعمرانية وسياسية ومذهبية وثقافية على كل من عمان والمغرب، وذلك خلال المرحلة الممتدة من القرن الثاني الهجري حتى الثامن.

أولاً: أسس الصلات التجارية:

من نافلة القول أن عمان أقامت علاقات تجارية مع بعض القوى الاقتصادية العالمية خلال العصر الإسلامي، بيد أن بلاد المغرب حظيت بنصيب من اهتمام التجار الأباضيين العمانيين لأسباب تاريخية واستراتيجية لا تغرب عن كل من سبر غور الحركة الأباضية. فقد عولت هذه الحركة على خطة استراتيجية تقوم على نشر المذهب في الأصقاع النائية بعيداً عن عيون الخلافتين الأموية والعباسية اللتين كانتا تتربصان بها الدوائر، فوجدت في بلاد المغرب التربة الخصبة الملائمة[٦]، محققة بذلك هدفاً مزدوجاً يتمثل في تحقيق فرص نجاحها في هذه المنطقة النائية من جهة، وتموين الدعاة بعائدات التجارة من جهة أخرى، فضلاً عن كسب بلاد المغرب كقاعدة

أساسية للوصول إلى بلاد السودان الغربي موئل تجارة الذهب. لذلك يمكن اعتبار هذا الأساس السياسي الاقتصادي من بين أبرز الأسس التي ساهمت في وضع اللبنات الأولى للصلات التجارية بين عمان وبلاد المغرب.

ومما زاد في تعميق أواصر الترابط التجاري بين البلدين، موقعهما الجغرافيان اللذان يعدّان من أهم مواقع المراكز التجارية الدولية آنذاك، فعمان بإشرافها على الخليج العربي وبحر العرب والمحيط الهندي، وكونها بوابة الشرق، شكلت مركز استقطاب للتجارة العالمية. كما أن معظم شواطئها محاط بجبال تحميها من الرياح القوية، مما ساهم في نشوء الموانئ، وأهلّها لتكون المركز الرئيسي للساحل الغربي من الخليج[٧]، فأصبحت هذه الموانئ تشكل مناطق عبور للسفن التجارية الذاهبة أو العائدة من شرق آسية إلى البحر المتوسط، ولا غرو فإن المقدسي[٨] الذي لم تكن محاباته محل شبهة، عدّ مدينة صحار بمينائها البارز «قصبة عمان ليس على بحر الصين اليوم بلد عامر آهل حسن، طيب نزيه ذو يسار وتجار..وهي دهليز الصين وخزانة المشرق». كما أن مسقط كانت ميناء هاماً لانطلاق السفن نحو الصين والهند[٩]. أما البصرة التي تحولت إلى مدينة عُمانية بفضل هجرة العمانيين إليها[١٠] واستقرار بعض الأسر العمانية كبيت بني المهلب في ربوعها، وانتشار الأباضية فيها، فقد احتلت موقعاً تجارياً مهماً، وحسبنا وصف المصادر لها بأنها «مدينة الدنيا ومعدن تجارتها وأموالها»، و«فرضة البحر ومطرح البر»[١١]، لذلك كانت هذه المدن تهيمن على تجارة البحار الثلاث: بحر الصين، والمحيط الهندي والبحر المتوسط فضلاً عن اتصالها بشرق أفريقية وبحر الزنج عن طريق جزيرة قنبلو (مدغشقر)[١٢]، وهو ما جعل عمان مؤهلة للقيام بدور الوسيط التجاري بين الشرق الأقصى وشبه الجزيرة العربية وأفريقية الشرقية، لذلك لم يحد عن الصواب أحد الباحثين[١٣] حين ذكر بأنها فتحت خط المواصلات البحرية بين الشرق والغرب. ولا أدل على أهمية موقعها الجغرافي من أنها لعبت دوراً دولياً رياديا في تطوير "طريق البخور"[١٤]. ولا يخامرنا شك في أن موقعها على البحار

الثلاث جعل منها قوة بحرية متميزة[١٥]، ومن ثم لا نتفق البتة مع حكم "ولكنسون"[١٦] الذي ذهب إلى القول بأن ازدهار القوة البحرية العمانية «كان يقوم على أسس واهية لأن نظام الدولة العمانية ينطلق من أسس قبلية وليس من أسس دولية أو ملاحية». فعلى عكس هذا التصور، يظهر أن المواصفات الموقعية التي ذكرناها جعلت من عمان قوة تجارية وبلداً قابلاً للاعتماد على نفسه اقتصادياً[١٧]، خاصة بحكم وجوده على الخليج الذي يعدّ دون منازع أهم بحر داخلي في العالم[١٨]، ولا يخامرنا شك في أن هذا الموقع المتحكم في ناصية التجارة الدولية ما جعل عمان تتعرض لتحرشات الدولة العباسية التي فطنت إلى خطورة سيطرتها على المعابر المائية الهامة، فحاولت إحكام قبضتها عليها حتى لا يتخلخل الاقتصاد العباسي. ولم تكن الحملات العسكرية التي سيّرها هارون الرشيد نحو عمان سنة ١٨٩هـ والحملات التي تبعتها، خاصة الحملة البربرية التي قادها محمد بن نور[١٩]، إلا محاولات سعت للحيلولة دون احتكار عمان لموقعها التجاري، خاصة التجارة البحرية، كما يذهب إلى ذلك ولكنسون نفسه مناقضاً طرحه السالف الذكر[٢٠].

وعلى غرار عمان، احتل المغرب بدوره موقعاً استراتيجياً متفرداً في الخارطة التجارية،فإحاطته بالبحار من ثلاث جهات، ووجود موانئ صحراوية على تخومه الجنوبية، ما جعل ابن خلدون[٢١] يسميه بجزيرة المغرب.

ولا ريب أن إشرافه على البحر الأبيض المتوسط والمحيط الأطلسي، وامتداده نحو أفريقيّة السوداء، كل ذلك جعله يتحكم في شرايين التجارة المتوسطية الغربية، فضلاً عن تجارة ذهب السودان التي كانت تشكل أهمية قصوى في التجارة العالمية، الأمر الذي جعله يلعب دور الوسيط التجاري مع أوروبة، وهو ما أفضى في نهاية الأمر إلى وجود تكامل جغرافي بين عمان والمغرب عبر خط يربط بين القارات الثلاث آسية وأفريقية وأوروبة.

إن استراتيجية الموقع الجغرافي للبلدين، فضلاً عن تكاملهما الذي جاء نتيجة بعد الواحد منها عن الآخر، واختلاف نوعية السلع والبضائع التجارية لكل منهما، شكل في نظرنا إحدى الأسس الهامة التي قامت عليها الصلات التجارية بين الطرفين.

بيد أنه لا يمكن إغفال أساس آخر يتمثل في الجانب البشري، ويتعلق الأمر في هذا المقام بمهارة الإنسان العماني في مجال الملاحة والتجارة. فالحفريات والتنقيبات الأثرية أثبتت بجلاء دور منطقة الخليج عامة وعمان بصفة خاصة في ميدان الملاحة والتجارة منذ عصور ما قبل الإسلام[٢٢]. كما أن الكتابات السومرية التي تعود إلى الألف الثالثة قبل الميلاد أكدت علو كعب العمانيين في الملاحة البحرية، إذ ورد ذكر عمان باسم "ماجان"، وهو مصطلح سومري يعني القوم الذين يركبون البحر[٢٣].

وبعد الفتح الإسلامي، أصبح التاجر العماني أكثر حيوية، لأن الإسلام شجع التجارة والتجار، حتى أنه نسب إلى الرسول (ص) قوله: «من تعذر عليه الرزق فعليه بعمان»[٢٤].

ونتيجة لذلك تطورت صناعة السفن تطوراً هائلاً [٢٥] وتعددت رحلات العمانيين وتكثفت أنشطتهم شرقاً وغرباً [٢٦]، وهو ما جعل التجارة العمانية تدخل منعطفاً حاسماً ذا بعد عالمي حضاري.

لقد بات بديهياً بعد هذه النقلة الإسلامية أن تزيد الموانئ العمانية ازدهاراً ويتعاظم نشاطها لتلعب دوراً موجّهاً في التجارة الدولية[٢٧]، ولا غرو فإن إمام عمان غسان بن عبد الله اليحمدي أنشأ أسطولاً لحماية السواحل العمانية وتجارتها البحرية[٢٨]، وقد بلغ هذا الأسطول في عهد الإمام المهنا بن جيفر ٣٠٠ سفينة [٢٩]. والواقع أن انتشار الإسلام وامتداده من المحيط إلى أقصى تخوم الصين، أعطى للتجارة العمانية والمغربية معاً دفعة جديدة وشكّل منعطفاً هاماً في تطورها، وتلك حقيقة ينبغي وضع الأصبع عليها، ذلك أن مؤسسة الخلافة بعد أن بسطت نفوذها على أقاليم شبه الجزيرة

العربية وأغلب سواحل البحر المتوسط، أصبحت تهيمن على شرايين الطرق البحرية والبرية. كما أن توحيد المنطقة الممتدة من الخليج إلى المحيط تحت السلطة العربية-الإسلامية أسفر عن وحدة البحر المتوسط مع بحر الخليج، وهو ما أدى بدوره إلى تقارب تجاري بين عمان وبلاد المغرب. كما أن هيمنة الدول العربية وبسط نفوذها على هذا المجال السياسي وفرض السلام والأمن وإزالة الحواجز والعقبات مكّن من تحويل التجارة نحو منطقة الخليج. وقد فطن أحد الباحثين [٣٠] إلى أهمية هذا التحول فذكر أن طريق الخليج لا يموّن أقاليم المشرق فقط، وإنما يموّن كذلك بلاد البحر المتوسط وأوروبة لأنه أقصر، ولا شك أن هذا التحول الذي ربط بين هذين المجالين البحريين زاد من تقريب الشقة بين عمان وبلاد المغرب.

وقد أشاد برزك بين شهريار المتوفي في منتصف القرن الرابع الهجري بمهارة العمانيين وعلو كعبهم في مجال الملاحة البحرية وبروز دور العديد من ربابنة البحر مثل يزيد العماني وغيره من النواخذة والملاحين [٣١]، لذلك بات طبيعياً أن تصبح عمان مركز جذب لتجّار الآفاق، وهو ما فطن إليه الجغرافيون، فذكر المقدسي [٣٢] أن «من أراد التجارة فعليه بعدن أو عمان أو مصر». وأشار الإدريسي [٣٣] إلى الدور المركزي الذي صارت تلعبه عمان بالنسبة للسفن الوافدة من البصرة، فذكر أنه «إذا وصلت المراكب الصاعدة من البصرة إلى عمان ووصلت إلى هذا الحد فرّغت في الساحل ما فيها من الأمتاع حتّى تخف السفينة وتجوز ذلك الطرف ثم توسق بعد ذلك وتسير إلى عمان». نفس الملاحظة وقف عندها ابن بطوطة[٣٤]، فعندما زار ظفار في القرن الثامن الهجري وتأمل في عادات أهلها وأحوالهم وأنماط معيشتهم خلص إلى القول بأنهم «أهل تجارة لا عيش لهم إلا منها». ولم يفت الباحثين المعاصرين التنويه بمهارة العمانيين في مجال الملاحة البحرية والتجارة أبان مختلف حقب التاريخ الإسلامي، وهي ميزة ورثها هؤلاء عن أجدادهم السبئيين[٣٥]،وساعدهم ذلك معرفتهم الدقيقة بمواعيد الرياح الموسمية الشمالية والجنوبية والإفادة منها في تحديد مواقيت

رحلاتهم التجارية. وبفضل هذه المهارة تمكّن العمانيون من إنشاء قوة بحرية في الأندلس، ساهمت بنصيب وافر في النشاط التجاري مع بلاد المغرب(٣٦).

إلى جانب ذلك كان للعمانيين كل المواصفات والمؤهلات التجارية الكافية من حب الرحلة والمغامرة لكسب الربح، وتكوين رؤوس الأموال الضخمة، فلم يتوانوا عن الذهاب إلى أقصى المناطق التجارية كالصين. وفي هذا الصدد، نستشف من بعض الأدبيات الصينية مثل كتاب «السجل المختصر لسهول التنين» الذي ألفه سوزاي من أسرة سون أن أحد العمانيين المتواجدين في مدينة كانتون الصينية كان له رأس مال ضخم قدّر بعدة ملايين "مين"، في الوقت الذي بلغت التجارة الخارجية لحكومة أسرة سون – وهي في قمة ازدهارها- دخلاً لم يتجاوز مليونين من هذه العملة. ويستشف من ذلك أن ثروة هذا التاجر العماني فاقت دخل التجارة الخارجية السنوية لحكومة أسرة سون(٣٧). وعندما تحدث الإدريسي (٣٨) عن أهل ظفار، وصفهم بأن لهم «فضول أموال وبضائع»، وهو نص كاف للدلالة على ما كان يملكه أهل هذه المدينة من رؤوس أموال هامة تزيد عن الحاجة. ولا يساورنا شك أن نفس الوضعية كانت لدى التجار العمانيين في بلاد المغرب، خاصة أولئك الذين مارسوا تجارة الذهب في الواحات المغربية، فأصبحوا أثرياء كما سنبين في محلّه. لذلك لم يكن غريباً أن يمتلك بعض التجار الأغنياء مراكب خاصة كانوا يجوبون بها البحار أو يؤجرونها لوكلائهم، وهو ما تؤكده النصوص(٣٩).

ومن الأسس الهامة التي ساهمت في تدعيم الصلات التجارية بين عمان وبلاد المغرب كذلك، تعدد الطرق التجارية الرابطة بين البلدين، وكانت مصر تشكل حلقة وصل بينهما، حيث كان التجار العمانيون يرتادون الطرق المؤدية إليها، ومنها يواصلون السير نحو الديار المغربية.

ويسهب الجغرافيون في ذكر الطرق المنطلقة من عمان نحو مصر ومنها نحو المغرب. فابن خرداذبة(٤٠) يتحدث عن طريق بري يربط البصرة بعمان عن طريق

قطر وساحل هجر ثم يصل إلى عمان، ومن هناك يتجه عن طريق الساحل إلى عدن ثم إلى مكة ومنها إلى مصر ثم المغرب.

وثمة طريق بحري يربط بين البصرة –قاعدة الأباضيين– وميناء جدة الذي يعبر إليه التجار بطريق آخر، ويشكل هذا الميناء بدوره منطقة عبور نحو مصر ثم بلاد المغرب(٤١).

كما وُجد طريق بحري هام يبدأ من البصرة عبر الخليج العربي إلى عمان حتى يصل إلى مراكز البحر الأحمر ومنها إلى شرق أفريقية ثم يصعد إلى القيروان ومنها إلى تاهرت وسجلماسة.

وهناك إشارات وردت عند ابن حوقل(٤٢) حول سلوك تجار المشرق عموماً هذا الطريق البحري، ناهيك عن طريق بري آخر يربط عمان بعدن، ومن هناك يتفرع طريقان بريان أحدهما ساحلي والآخر داخلي نحو ميناء جدة والجار، الذي يعدّ همزة وصل بين عمان ومصر والمغرب(٤٣)، مصداق ذلك وصف المقدسي(٤٤) لجدة بأنها خزانة مصر، حيث كان ميناء السويس محطة استقبال السلع المغربية نحو عمان(٤٥). وفي نفس المنحى يشير القلقشندي(٤٦) إلى طريق يربط عمان بمصر حيث يمكن الوصول بسهولة إلى المغرب عبر طريق آخر يربط الإسكندرية بتاهرت.

فضلاً عن ذلك وجد طريقان آخران يربطان بين مصر وعمان والبصرة مقر الدعوة الأباضية، أولهما الطريق البحري الرابط بين ميناء القلزم (السويس) وزبيد وعون مباشرة عبر البحر الأحمر، وثانيها الطريق المار عبر النيل أو على شاطئه حتى مدينة قوص في أعالي مصر ومنها إلى عيذاب وجدة(٤٧). ووجود مصر على ساحل البحر الأحمر سهل مأمورية اتصالها البحري بكافة بلاد المغرب، بواسطة ميناء الإسكندرية الذي يربط باقي موانئ المغرب. وأيضاً كان ثمة إمكانية للاتصال البري بواسطة الطريق الذي يخرج من الفسطاط والقاهرة والإسكندرية ومنها إلى برقة وإفريقية ثم

بقية بلاد المغرب، ناهيك عن طريق آخر كان ينطلق من الفسطاط والقاهرة إلى المغرب مباشرة دون الإسكندرية (٤٨).

وبالمثل كانت مصر على اتصال وثيق ببلاد المغرب عبر الصحراء الليبية التي تشكل معبراً لتجار عمان الراجعين من فزان، زويلة والسودان أو أباضية المغرب من هوارة الرابضة في شرق طرابلس، والتي كانت تجوب الصحراء ذهاباً وإياباً بين المدن الرستمية في المغرب الأدنى والأوسط ومصر محملة بالبضائع الرستمية والمصرية(٤٩).

يضاف إلى ذلك أن مدينة تاهرت مركز الأباضية في بلاد المغرب كانت توجد على طريقين من أشهر الطرق التجارية في ذلك الوقت، وهما طريق الشرق-غرب وطريق الجنوب - شمال، مما هيأها لكي تكون مركزاً أساسياً للتبادل التجاري بين السودان والمغرب والمشرق(٥٠).

من خلال كل هذه القرائن، يتأكد أن الطرق التجارية بين عمان والمغرب تكثفت وتنوعت ما بين طرق برية وبحرية وصحراوية، وأن مينائي جدة والقلزم كانا همزة وصل ساعدت على تنقل التجار بين البلدين.

وإذا كانت الطرق التجارية تعدّ من الأسس الهامة التي ساهمت في بناء صرح الصلات التجارية بين المغرب وعمان، فإن الأسس السياسية ساهمت بدورها في هذا المجال. وحسبنا أن الأباضية نجحوا في تأسيس دولة أباضية في المغرب الأوسط وهي الإمارة الرستمية التي أصبحت لها نفس التوجهات السياسية والمذهبية، فأصبح كل طرف منها "وطناً" ثانياً للطرف الآخر، ولا غرو فقد توحدت الرؤى السياسية، وأصبح أعداء وأنصار هذه الدولة نفس أعداء وأنصار الدولة الأخرى. وقد عبّر الإمام الأباضي محبوب بن الرحيل عن هذه الوحدة السياسية أصدق تعبير بقوله: «وكانت المحكمة واحد لوحكم رجل في المغرب تولاه من كان منهم بالمشرق ولو حكم

بالمشرق تولاه من كان بالمغرب»[٥١]. ومثل هذه الوحدة السياسية التي نسج خيوطها المذهب الأباضي، شجعت تنقّل التجار بين عمان والمغرب بنوع من الحرية والطمأنينة. فصارت تاهرت عاصمة الرستميين قبلة للتجار العمانيين الذين انتقلوا إليها من البصرة. وفي هذا المعنى يشير ابن الصغير[٥٢] إلى المسجد الذي شيدوه بها والمعروف «بمسجد البصريين».

كما أن توسع هذه الدولة الأباضية الفتية ساعد على تمتين صلاتها التجارية بعمان، فقد كانت حدودها تمتد في الشمال الشرقي إلى طرابلس وسرت وبرقة، ومنها يمكن ولوج الإسكندرية فالانطلاق نحو عمان. ومن ناحية الجنوب الشرقي امتدت حدود الدولة الرستمية إلى مدينة زويلة السودانية التي اعتنق أهلها المذهب الأباضي، ومن هذه المدينة كان بالإمكان الوصول شرقاً إلى واحات مصر الغربية وجنوباً إلى الكانم والبرنو في حوض بحيرة تشاد، ومنها إلى بلاد السودان الشرقي فالحبشة والصومال فساحل شرقي أفريقية، التي كانت على اتصال دائم بعمان[٥٣].

إن تعدد شبكة الطرق التجارية التي تربط تاهرت الأباضية بمناطق التجارة العالمية حقيقة وقف عليها المؤرخ ابن الصغير[٥٤] فترجمها بقوله: «ومنها (تاهرت) استعملت السبل إلى بلاد السودان وإلى جميع البلدان من مشرق ومغرب بالتجارة وضروب الأمتعة، فأقاموا على ذلك سنتين أو أقل من ذلك أو أكثر والعمارة زائدة والناس والتجار من كل الأقطار تاجرون».

إلى جانب هذه الأسس الهامة، ساهم تشجيع الدولة الرستمية على كثافة العلاقات التجارية بين أباضية المغرب والمشرق. فأمراء هذه الدولة لم يألوا جهداً في الاهتمام بالطرق التجارية وحفر الآبار تسهيلاً لمأمورية القوافل التجارية المارة بالمناطق الداخلية في الصحراء[٥٥]. بل إن الأمراء الرستميين أنفسهم كانوا يحترفون التجارة قبل توليهم الإمارة. وعندما تولوا المسؤولية أدركوا أن قوة بلادهم لا تتحقق إلا

بها،وفي هذا الصدد تذكر المصادر أن الإمام عبّد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم كان من كبار التجار، وأن تجارته بلغت الحجاز واليمن والبصرة، التي كان ينتشر فيها العمانيون(٥٦)، لذلك أصبح من كبار أثرياء بلده حتى أثر عنه: «لو لم أكن إلاّ أنا وابن جرني وابن زلغين لأغنينا بيت مال المسلمين بما علينا من الحقوق الشرعية» (٥٧). ومن ذلك تتضح جلياً مساهمة الطبقة الحاكمة وعلية القوم من الأثرياء وتشجيعهم للمشروعات التجارية الاستثمارية التجارية. كما أن أفلح ابن الأمير السالف الذكر كان يعمل بنفسه في التجارة أثناء حياة أبيه، وكانت له علاقة تجارية مع البصرة، الموطن الأم للتنظيم الأباضي، وكان التبادل التجاري قائماً على قدم وساق بين البلدين سواء في عهده أو خلال عهد أبيه.

نفس القول ينسحب على الإماميين أبي اليقظان محمد بن أفلح وأبي حاتم يوسف بن محمد اللذين شغفا بالاشتغال في التجارة. وفي هذا الصدد يخبرنا ابن الصغير(٥٨) أن الإمام أفلح أوفد سفارة من قبله إلى أحد ملوك السودان وبعث إليه مجموعة هدايا حفاظاً على مصالحه التجارية.

ومن الجانب العماني، لانعدم نصوصاً تشير إلى تشجيع أباضية عمان والبصرة للتبادل التجاري مع بلاد المغرب، فقد حرص هؤلاء على إمداد الدولة الرستمية بكل الحاجيات الاقتصادية، فصارت بضائعهم ترد إلى تاهرت تباعاً. وفي نفس المنحة يخبرنا الشماخي،(٥٩) أن الربيع بن حبيب الفراهيدي، خليفة أبي عبيدة مسلم بن أبي كريمة في زعامة الأباضية، بعث صحبة أخيه كل ما يحتاجه الإمام من أصناف البضائع والسلع، فجمع الأمير الرستمي تجار البلد ليشتروا ما ورد من سلع البصرة، وعاد الأخ مزوداً بالبضائع المغربية إلى موطنه. وثمة شهادة وردت على لسان رحالة مغربي،(٦٠) شاهد بعينه تشجيع أرباب الدولة العمانية للتجارة. فوصف حرص أمير ظفار وتشجيعه للتجار على القدوم إلى بلده، فذكر أنه كلما وصل مركب من أي جهة أو منطقة بعث الأمير المذكور وفداً لاستقباله مصحوباً بهدايا «وتضرب أمامهم

الطبول وتنفخ الأبواق وتبعث الضيافة»، ثم يعلق ذلك بقوله: «وهم يفعلون ذلك استجلاباً لأصحاب المراكب». والملاحظة ذاتها أثارت انتباهه عن أهالي قلهات حيث قال عنهم: والملاحظة ذاتها أثارت انتباهه عن أهالي قلهات حيث قال عنهم: «وإذا وصل إليهم مركب فرحوا به أشد الفرح»[٦١]. وفي نفس المنحى يؤكد البكري وغيره[٦٢] تشجيع الدولة العمانية للتجار الوافدين إلى عمان عن طريق بناء الخانات، خدمة لهم وتوفيراً لراحتهم.

ومن الأسس الأخرى التي زادت من تدعيم الصلات التجارية بين البلدين، استناد المعاملات التجارية بينهما على مرجعية دينية سليمة. فقد حرص أئمة المغرب الأوسط كل الحرص على تطبيق القواعد الشرعية الإسلامية في عمليات البيع والشراء. وفي هذا السياق تجمع المصادر أن الإمام عبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم منع ابنه من القيام برحلة تجارية إلى بلاد كوكو،[٦٢] لعدم تمكنه من الإجابة على سؤال من الأسئلة العديدة التي سأله إياها في مجال المعاملات التجارية كالربا والغش والبيع والشراء. فبعد أن تبيّن للإمام عدم تفقه ابنه تفقهاً كاملاً في أحكام التجارة حال دون رحلته التجارية خشية أن يدخل في قسط من الحرام إلى ماله[٦٣]. ولعل هذه المرجعية المتمسكة بحرفية الدين ومخافة الله ما جعل المتعاملين يثقون في التجار الأباضيين، فيقبلون على التعامل معهم، وهو ما ساهم في رواج الحركة التجارية بين أباضية عمان والمغرب.

يأتي بعد ذلك أساس آخر نعتقد أنه هيأ المناخ الملائم لرواج التجارة بين البلدين، وهو العدالة والأمن اللذان شعّا في كل من عمان والمغرب. فالتجارة لا تنمو وتزدهر إلا في ظل الأمن حيث يأمن التاجر على بضائعه وودائعه وعملياته الاستثمارية, والأمن لا يتوفر إلا بسيادة العدالة وابتعاد الحكام عن الطغيان والاستبداد. ولحسن الطالع، فإن عمان والمغرب حظيا بنعمة العدالة والأمن أكثر من المناطق الأخرى، وهو ما عبّر عنه مؤرخ عمان والمغرب السيابي،[٦٤] حيث ذكر أنه باستثناء أهل عمان«لا يوجد إلا

عبيد الملوك وعبيد الشهوات ورواد الظلم» ثم يضيف ما يؤكد اشتراك المغرب في هذه الميزة: «نعم يشارك أهل عمان في هذا الحال إخوانهم أهل المغرب». ويخيل إلينا أن هذا الحكم صائب إلى حد كبير كما تثبت النصوص. ففي بلاد المغرب وبعد هدوء عواصف ثورات الخوارج، خيّم جو من الاستقرار عندما تأسست إمارات مستقلة نجحت في كسر شوكة طغيان الأرستقراطية العربية، وطبقت مبادئ العدالة الإسلامية في كل من سجلماسة والقيروان وتاهرت، التي نعمت بعدل الأئمة الأباضيين، و هي حقيقة وقفت عليها المصادر. فالأمير عبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم مضى «على الرضى من المسلمين والاستقامة على الدين»(٦٥) كما أن ابنه أفلح «عمل بالسنة وقسم بالسوية وعدل في الرعية»(٦٦) ولعل هذا ما حدا بأحد الدارسين(٦٧) إلى نعت هذا النمط من العدالة بـ"الاشتراكية الإسلامية". وعلى النهج ذاته سار المدراريون في سجلماسة.فطبقوا مبادئ العدل والشورى حتى أنهم بايعوا رجلاً أسوداً أميراً عليهم، هو عيسى بن الأسود(٦٨)، عربوناً على عدالة العقيدة الإسلامية السمحاء، لذلك شاع الأمن والاستقرار في ربوع المغرب، رغم التوتر الذي كدّر أحياناً صفو العلاقات بين عواصم الإمارات المغربية بسبب الخلافات المذهبية؛ غير أن المصالح التجارية خلقت جواً من التسامح، فأقبل الناس على الإنتاج والبيع والشراء. وبالمثل فإن أمراء المغرب الأوسط لم يدخروا وسعاً لتوظيف الإمكانيات لإقرار الأمن. فالأمير أفلح بن عبد الوهاب اعتاد على إرسال ابنه يوسف بن أبي حاتم في جيش مع وجوه زناتة لحراسة القوافل التجارية القادمة من المشرق محملة بالبضائع والسلع مما لا يحصى كثرة وضخامة(٦٩).

وفي ذات الفترة، عرفت عمان بدورها استقراراً سياسياً وعدالة اجتماعية بعد أن أفلحت في تأسيس الإمامة، معبّرة بذلك عن سيادتها واستقلالية قرارها، ابتداءً من عهد الإمام الجلندي بن مسعود. فالمصادر تجمع على أن هذا الأخير «كان عادلاً مرضياً»(٧٠). ورغم انهيار الإمامة الأولى وعودة تحكم الجبابرة في رقاب العمانيين،

فإن هذه الكبوة كانت قصيرة العمر، إذ سرعان ما تمكن هؤلاء من الإطاحة بهم، فتألفت القلوب وعقدت الإمامة لمحمد بن عفان، الذي كان حسن السيرة[٧١]. كما أن خلفه الوارث بن كعب الخروصي «وطئ أثر السلف الصالح من المسلمين وسار بالحق»[٧٢] ونفس القول ينطبق على الإمامين غسان بن عبد الله الفجحي الذي «عز الحق وأهله»[٧٣]، ثم عبد الملك بن حميد الذي «سارسيرة الحق والعدل واتبع السلف الصالح وصارت عمان يومئذ خير دار»[٧٤] والقائمة تطول.

ومن البديهي أن ينعكس اتجاه العدالة التي طبقها الأئمة -كما تثبت النصوص- على الأمن والاستقرار والازدهار التجاري، حتى أن أحد الباحثين[٧٥] عدّ الفترة الممتدة من عهد الإمام غسان بن عبد الله الفجحي وعزان بن تميم الخروصي قمة الازدهار والاستقرار، رغم بعض الاضطرابات والنزاعات القبلية التي حدثت في عهد راشد بن النظر[٧٦].

إن الأمن والعدالة والاستقرار الذي ساد ربوع كل من عمان وبلاد المغرب،ساهم -دون شك- في خلق جو ملائم للتبادل التجاري بين البلدين وإرساء أسس وقواعد الصلات التجارية بينهما. ويمكن أن نسوق إضافة إلى ما سلف عرضه من الأسس التي هيأت التربة الخصبة للصلات التجارية بين المغرب وعمان، الأساس الأخلاقي. فإلى جانب ما ذكرنا سابقاً عن أخلاق الأئمة الأباضيين في المغرب والتي كانت انعكاساً لأخلاق الأباضيين عامة، يمكن الجزم أن التجار العمانيين حذوا نفس المنهج الأخلاقي حذو النعل بالنعل. وتنهض شهادة ابن بطوطة[٧٧] خير دليل على ذلك. فقد وصف أهل ظفار بالتواضع وحسن الخلق والفضيلة ومحبة الغرباء، وكلها صفات تحبب إلى التاجر التردد على عمان. وعند حديثه عن أهل صور وقلهات يذكر نفس الرحالة أنهم «إذا وصل إليهم مركب فرحوا به أشد الفرح» تعبيراً عن هذه الروح الأخلاقية السامية[٧٨]. ومن المسلم به أن التجارة ميدان عملي تمتحن فيه الأخلاق والعقيدة والسلوك اليومي. فالمرء في صراعه مع الإغراءات المادية لا ينتصر على

هوى النفس ونوازعها نحو الربح الوفير في أيسر الطرق وأدناها إلا إذا كان يملك طاقة إيمانية ثابتة، تعصمه من الوقوع في مهاوي الرذيلة والزلل، والتجارة هي المحك الحقيقي الذي تختبر فيه القيم. ولاشك أن المغاربة كانوا يلاحظون ما تميز به تجار عمان عن غيرهم من البلدان الأخرى، مما أدى إلى الإقبال عليهم، ومن ثم كان ذلك عاملاً شجع على نمو حركة التبادل التجاري بين البلدين.

من حصاد ما تقدم، يتبين أن الموقع الاستراتيجي لكل من عمان والمغرب واقتران الدعوة الأباضية بالتجارة، ووفرة الطرق التجارية، وتشجيع الحاكمين في البلدين لحركة التجارة وانتشار العدالة والأمن، واستناد المعاملات التجارية إلى مرجعية دينية، إلى جانب القاعدة الأخلاقية التي كانت متأصلة في نفسية الأباضيين، كلها أسس قوية شكلت تربة خصبة ثبتت عليها الصلات التجارية بين البلدين، وأدت إلى نموها وفاعليتها، وهو ما سنتناوله في الشق الثاني من هذا المبحث.

المبادلات التجارية: مظاهرها وفاعليتها

نتيجة للأسس الثابتة التي أتينا على ذكرها، بات من البديهي أن ينمو ويزدهر النشاط التجاري بين عمان وبلاد المغرب. فالتجار الأباضيون من العمانيين وغيرهم فطنوا إلى أهمية العمل التجاري بهذا الجناح الغربي من دار الإسلام، إذ يشكل نقطة انطلاق نحو بلاد السودان الغربي، موطن السلع النادرة وفي مقدمتها الذهب الذي وقفوا على أهميته وبعده في التجارة بعيدة المدى(٧٩).

ومن حسن الحظ أن البيوتات التجارية في جبل نفوسة كانت ترتبط بعلاقات قوية مع مراكز السودان التجارية، لذلك وجه العمانيون وجههم شطر بلاد المغرب. نفس القول ينطبق على المغاربة الذين كانوا مولعين بالبضائع المشرقية النفيسة. وفي هذا السياق تخبرنا المصادر أن الربيع بن حبيب الفراهيدي العماني قام بعملية تجارية قيمتها اثني عشر ألف دينار، لحساب الإمام الرستمي عبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم، على

شكل سلع وبضائع اشتراها له من البصرة وبعث بهذه السلع مع أخ له،فلما وصل المبعوث التجاري للمغرب الأوسط، سلّم ما حمله من جهاز وسلع للإمام المذكوو الذي جمع بدوره تجار تاهرت وعرض عليهم كل البضائع المرسلة لاقتناء ما شاؤوا منها[٨٠]. وكان حاجب الطائي قد قام بدوره بصفقة تجارية بلغت كلفتها ثمانين ألف دينار مقارضة[٨١]، مما يدل على أن المعاملات التجارية اتخذت كل الأشكال والصيغ التي تكفل الأرباح والاستثمار كالمقارضة وغيرها كما سنبين فيما بعد.

وثمة رواية أخرى أوردها ابن سلام الأباضي[٨٢] ونقلها عنه المتأخرون، تفيد أن القوافل التجارية الآتية من المشرق، خاصة البصرة وعمان، كانت تصل تباعاً إلى بلاد المغرب. وفي هذا الصدد ذكر في ترجمة أحد أعلام الأباضية بالمغرب أنه حفظ القرآن عن طريق الالتقاء بالتجار الوافدين ضمن القوافل، حيث كان يكتب عن فوج منهم لوحة فيحفظها، ثم ينتظر فوج القافلة التي تليها إلى أن تمكن من حفظ القرآن بهذه الطريقة. ولعل هذا النص يؤكد توافد التجار العمانيين بكثافة على منطقة عدّوها وطنهم الثاني.

ويذكر الدرجيني[٨٣] أن الفقيه أبا الربيع درس بسجلماسة على يد ابن الجمع من أباضية عمان. بيد أن المهم في الرواية ما يذكره عن ابن الجمع الذي جاء إلى سجلماسة ليس كعالم فحسب، بل كتاجر أيضاً، وهو ما يعكس كذلك إقبال التجار العمانيين على بلاد المغرب. ما يهمنا من تحليل الروايتين معاً أنهما تؤكدان تدفق التجار المشارقة ـ وضمنهم العمانيون- على بلاد المغرب دون انقطاع. ومنها ما يستنتج كذلك أن الأسواق المغربية كانت تغص بالسلع المشرقية حيث يتم البيع والشراء في تاهرت. وبعد انتهاء العمليات التجارية، كانت القوافل تواصل رحلتها متجهة إلى المغرب الأقصى ثم الأندلس وبلاد السودان[٨٤]، وتعود من هذه البلدان محملة بالبضائع المغربية المتنوعة لتنقلها إلى مصر والشام والحجاز وبغداد وعمان وغيرها من بلدان المشرق. وكانت الجهات الرسمية تحرص على حمايتها ذهاباً وإياباً [٨٥].

ومن القرائن على شيوع التبادل التجاري بين عمان وبلاد المغرب ما أورده ابن الفقيه الهمذاني[٨٦] عن توافد تجار البصرة على السوس الأقصى الواقعة جنوب المغرب الأقصى. ومعلوم أن البصرة كانت تغص بالتجار العمانيين الذين يمموا وجههم نحو بلاد المغرب بهدف التجارة ونشر الدعوة الأباضية في الوقت نفسه.

وبالرجوع إلى المصادر الجغرافية يمكن الوقوف على أهم السلع العمانية التي كانت تصدّر إلى مختلف أصقاع العالم، وضمنها بلاد المغرب. فقد اشتهرت عمان بتصدير اللبان الذي كان يستخدم في تحضير الأدوية[٨٧]، وقد أشاد ياقوت الحموي بجودته[٨٨]. واشتهرت به على الخصوص منطقة مهرة من أعمال عمان[٨٩] ومدينة مرباط الواقعة على ساحل خليج ظفار[٩٠]. وفي الوقت نفسه تم تصدير القنى والتمور[٩١] والثياب الحريرية والقطنية[٩٢] والمسك والزعفران واللؤلؤ والديباج والبلور. والفلفل وغيرها من المواد التي أسهب في ذكرها المقدسي[٩٣]. ومن ذلك يتضح أن تجارة عمان كانت تقوم على بضائع محلية أهمها اللبان واللؤلؤ، ومنتجات أخرى تقوم فيها بدور الوسيط؛ وحسبنا أن الوسطاء التجاريين العمانيين المقيمين في البصرة استغلوا ما يرد إلى هذه المنطقة من بضائع الشرق الأقصى فينقلوها إلى بلاد المغرب، نذكر منها الخز والبز والحلل النجرانية والمناديل الحريرية الكوفية والجواهر والياقوت الأزرق والأحمر والماس والستور والمكاييل[٩٤]. كما استغلوا بضائع المشرق الإسلامي ليحملوها إلى المغرب كالثياب المختلفة الألوان[٩٥] والديباج والخزف العراقي المتقن الصنع[٩٦] وماء الورد والبنفسج والأحجار الكريمة والعود والحرير الوارد من الصين والزمرد وغير ذلك من مواد الترف.

ولا يعزى رواج البضائع العمانية ببلاد المغرب إلى جودتها فحسب، بل إن المقتنين لها كانوا بدورهم من معتنقي المذهب الأباضي، ولا غرو فقد كانت قبائل هوارة وزناتة وتاهرت وما حواليها، فضلاً عن سكان الواحات كلهم أباضيون، لذلك فإن هذه الرابطة المذهبية زادت من الإقبال على سلع تجار عمان وأباضية المشرق بصفة عامة.

وقد كانت تاهرت على الخصوص من بين المدن المغربية التي تمكنت من امتصاص الحركة التجارية والسيطرة على شرايينها بفضل المكانة المتميزة التي صارت تحتلها في خارطة المدن التجارية. ولا غرو فقد ذكر أحد الرحالة[٩٧] أن لأهلها «تجارات وبضائع وأسواق عامرة». نجد مصداقاً لهذا الوصف ما أجمعت عليه المصادر من تقاطر التجار عليها من كل صوب وحدب ومن جنسيات مختلفة، حتى أصبحت تعرف «بعراق المغرب»[٩٨]. ويجمل ابن الصغير المالكي[٩٩]، حركة الرواج التجاري بهذه المدينة في عهد الأمير الرستمي أفلح بقوله: «وكثرت الأموال والمستغلات، وأتته الرفاق والوفود من كل الأمصار والآفاق بأنواع التجارات». كما انتعشت الأسواق واتسعت حتى أن أحد كبار تجار الفرس ويدعى ابن وردة بنى سوقاً سميت باسمه[١٠٠]. ونظرا للرواج الذي عرفته هذه الأسواق، فقد صار لكل سوق محتسب يقوم بالإشراف على تنظيمها[١٠١].

ولم يقتصر الأمر على تأهرت فحسب، بل امتد النشاط التجاري إلى مختلف المناطق الأباضية الأخرى في بُلْاد المغرب، مصداق ذلك ما ذكره الإدريسي[١٠٢] عن أهل مدينة ورجلان الذين كانوا يعتنقون المذهب الأباضي، فوصفهم بأنهم مياسير وتجار أغنياء، وأنهم يجوبون بلاد السودان ويدخلون بلاد غانة ونقاوة ويأتون منها بالتبر، ويضربونه دنانير يتعاملون بها في تجارتهم.

وثمة إشارة وردت عند الحسن الوزان المعروف بليون الإفريقي[١٠٣] حول النشاط التجاري الذي عرفته هذه المنطقة فيذكر أن سكانها بلغوا ذروة الثراء بفضل ما كانت تدره التجارة عليهم من أرباح. ويلمّح إلى وجود عدد هائل من التجار الأجانب الغرباء عن البلد.

وقد برع أهل ورجلان في معاملتهم للتجار الوافدين حيث كانوا يحرصون أشد الحرص على حسن استقبالهم، لأن معيشتهم كانت تقوم أساساً على البضائع التي يحملها لهم هؤلاء.

وبما أن صاحب النص عاش في فترة متأخرة (القرن ١٠هـ)، فإن باحثاً[١٠٤] استنتج من ذلك أن التجار الأباضية عادت إلى حيويتها ونشاطها بعد الدمار الذي تعرضت له العاصمة الأباضية على أيدي الفاطميين والزيريين ومن حكم من بعدهم.

وانتقل الإشعاع التجاري إلى كافة المناطق الأباضية الأخرى، إذ كانت جزيرة جربة إحدى المناطق الأباضية التي شهدت رواجاً تجارياً كبيراً حيث كان يؤمها إلى جانب التجار العمانيين تجار من مصر وبلاد الترك[١٠٥]. ومما ساعد على هذا الازدهار تمكن أباضية المغرب من لغات بعض شعوب السودان حيث كان حاكم جبل نفوسة الأباضي أبو عبيدة عبد الحميد الجناوني يتقن اللغة الكاتورية[١٠٦].

والقول نفسه ينطبق على مدينة غدامس التي انتشر فيها المذهب الأباضي في مستهل القرن الثاني الهجري حيث صارت هذه المدينة من أهم المحطات التجارية؛ ولا غرو فإن أكثر سكانها برعوا في الحركة التجارية مع طرابلس والسودان ومصر. وكانوا يتحدثون العربية والبربرية، بل إن بعضهم كان يتكلم بالسودانية بفضل كثرة رحلاتهم نحو بلاد السودان[١٠٧].

وبالمثل، برزت مدينة زويلة[١٠٨] على الساحة التجارية، وحسبنا أنها كانت تربط بلاد المغرب ببلاد الكانم والبرنو في حوض بحيرة تشاد. وكانت هذه المدينة موئلاً لسائر التجار من جميع الآفاق، وضمنهم تجار البصرة العمانيين على الأرجح[١٠٩].

كما نشطت الحركة التجارية لدى قبائل هوارة التي شكلت نموذجاً للتجار الأثرياء الذين كانوا يملكون رؤوس أموال ضخمة لتنشيط التجارة، فضلاً عن العبيد والخدم الذين كلفوا بخفر القوافل التجارية. ولا أدل على وضعيتهم المتميزة من قول الإدريسي[١١٠] أنهم كانوا يضعون على أبواب سكناهم علامات تعكس مقدار رؤوس أموالهم.

أما بجاية فقد بلغت في القرن الخامس الهجري ذروة مبادلاتها التجارية مع بلاد السودان والشرق. وقد صوّر أحد الجغرافيين[١١١] هذا الازدهار بقوله: «وبها القوافل

منحطة والأمتعة إليها براً وبحراً مجلوبة والبضائع بها نافقة وأهلها مياسير تجار، وأهلها يجالسون تجار المغرب الأقصى وتجار الصحراء وتجار المشرق، وبها تحل الشدود وتباع البضائع بالأموال المقنطرة»، مما ينهض دليلاً على أن الجمال شكلت - إلى جانب ا لسفن- وسائل النقل الرئيسية في التبادل التجاري.

ومن الملفت للانتباه أن العلاقات العدائية بسبب الخلافات المذهبية لم تقف عائقاً في وجه المبادلات التجارية ورواج السلع. فعلى الرغم من الغيوم التي كدرت صفو العلاقات السياسية بين تاهرت وسجلماسة وبغداد والقيروان وفاس، فإن التجارة القافلية المشرقية حطّمت هذه الحدود النفسية العدائية، فغصت سجلماسة بالتجار العمانيين الوافدين من البصرة، وكذا تجار بغداد والكوفة. وكانت هذه القوافل تحمل سلع المشرق إلى بلاد المغرب وتعود محملة بالبضائع السودانية في رفقة أهل سجلماسة[١١٢].

ورغم عداء الرستميين لبني مدرار بسجلماسة، واختلاف المذهب الأباضي عن نظيره الصفري، فإن التجارة قاربت بين ا لمذهبين إلى درجة أن ابن خلدون[١١٣]، لم يفلح في التمييز بين معتنقي المذهبين، فذكر أن سمكو بن واسول أمير سجلماسة كان «أباضياً صفرياً».

ثم ازدادت العلاقة متانة بعدما زوج عبد الرحمن بن رستم ابنته إلى المدرار بن اليسع حاكم سجلماسة[١١٤]. كما أن السلع السودانية وصلت إلى دولة الأغالبة -عدوة الأباضيين الرستميين- عن طريق تاهرت وسجلماسة[١١٥]، بل إن الدولتين شكلتا - خدمة لمصالحهما التجارية- حلفاً تصدى لهجوم العباس أحمد بن طولون عام ٢٦٧هـ/٨٨٠م، حيث شاركت قبائل نفوسة في رد الهجوم[١١٦].
إن هذا التسامح الذي فرضته المعاملات التجارية ينهض دليلاً على ازدهار الحركة التجارية بين المشرق والمغرب، وأن المصالح التجارية كانت فوق كل اعتبار.

ولا ريب أن عمان بمواردها الاقتصادية التي سلف ذكرها، جلبت كذلك اهتمام التجار

المغاربة الذين وصلوا بسلعهم إلى جميع الآفاق. إذ كانوا يرحلون نحو مصر والحبشة والجزيرة العربية وبلاد فارس والهند، ويمرون في هذه الرحلة الطويلة عبر عمان والبصرة، فيحطون بصحار التي كان بها « من التجار والتجارة ما لا يحصى كثرة»[١١٧]. وبالمثل كانت مدينة دبا في شمال عمان تستقطب بدورها العديد من التجار المغاربة، وهو ما لاحظه ابن حبيب صاحب كتاب المحبر[١١٨]، فذكر أنها «فرضتي العرب، يأتيها تجار السند والهند والصين وأهل المشرق والمغرب». وكانوا يستقبلون أينما حلّوا بالترحاب والحفاوة لما جبلوا عليه من حميد السجايا والقيم الإنسانية، حتى ليقال أن أحد التجار الأباضيين المغاربة كان يطوف بالمساجد لينظر في حوائج الغرباء وأبناء السبيل[١١٩].

وتنوعت السلع المغربية التي كانوا يجلبونها إلى عمان ما بين الذهب والفضة واللبود والقنب والكرويا والعصفر والعسل والسمن والحبوب والزيت[١٢٠]، والحناء[١٢١] فضلاً عن السجاد الذي اشتهرت به القيروان، والمنسوجات والثياب السوسية الرفيعة ذات البياض الناصع[١٢٢] والعمائم[١٢٣]، ناهيك عن الصوف والتربة البرقية المنسوبة إلى برقة، وكانت تصلح لعلاج داء الجرب[١٢٤]، إلى جانب السكر الشهير المجلوب من سوس جنوب المغرب الأقصى[١٢٥].

وقد ترجم ازدهار المبادلات التجارية بين عمان والمغرب بصك عملة نقدية ذهبية ببلاد المغرب، وإن كنا نفتقر إلى وجود عملات رسمية على غرار العملات التي خلفها بنو مدرار بسجلماسة[١٢٦]. كما ترد إشارة الدرجيني[١٢٧] حول تعامل أهل جربة بقراريط الحندوس، في حين شاع التعامل في مناطق أخرى بعملة ذهبية. أما بالنسبة لعملة عمان فتعوزنا النصوص، باستثناء شهادة ابن بطوطة[١٢٨] حول عملة ضربت في ظفار، وهي من النحاس والقصدير. بينما يبقى نص المقدسي يشوبه بعض الغموض إذ يكتفي بذكر اسم العملة المتداولة في عمان وهي "الطسوة"، دون أن يذكر معدنها وعيارها بدقة[١٢٩].

لكن الحفريات أثبتت وجود العديد من العملات الذهبية خلال فترات مختلفة من العصور الإسلامية الوسطى. وإذا كنا لا نعرف شيئاً عن نقود الأئمة الأباضيين بسبب عبث أيادي الدهر بها، أو بسبب صهرها وإعادة سكها(١٣٠)، فمعلوماتنا عن العملات العمانية تحت النفوذ العباسي أوفر حظاً؛ ففي سنة ٣٣٣هـ ظهر دينار ذهبي باسم محمد بن وجيه(١٣١). ويعلق أحد الباحثين(١٣٢)على ظهور العملة الذهبية بعمان في عهد بني وجيه، بأن ذلك يمثل مؤشراً على أن القوة الشرائية للنقود العمانية في هذه الفترة كانت قوية جداً، وإن ذلك يعكس الازدهار التجاري.

وأبان السيطرة البويهية على عمان تم سك عملات عثر منها على ست وعشرين قطعة، تسعة منها ذهبية والباقي فضية(١٣٣)، مما يعكس قوة التجارة العمانية، وليس من المستبعد كما ذهب إلى ذلك أحد الباحثين(١٣٤) أن تكون العملات في التجارة الخارجية تتم بمقتضى أوراق مكتوبة تشبه الحوالات أو السفاتيج. وقد شاهد ابن حوقل(١٣٥) في سجلماسة صكا مبلغه ٤٢ ألف دينار،بينما نقل القلقشندي(١٣٦) عن ابن سعيد أنه رأى كذلك صكاً بمبلغ ٤٥ ألف دينار، الأمر الذي يعبّر على كل حال عن أقصى أشكال تطور التعامل التجاري.

والملاحظ أن النشاط التجاري لأباضية المغرب مع أباضية عمان لم ينقطع البتة، واستمر حياً نابضاً إلى نهاية العصور الوسطى. وقد فطن إلى هذه الحقيقة باحث معاصر(١٣٧)، فذكر أن عزوف التنظيم الأم بالبصرة عن الاتصال بأباضية المغرب – لظروف سياسية– لم يسفر عن انقطاع الاتصال التجاري، إذ استمر أباضية المغرب في الاستفادة من بضائع السودان ونقلها نحو المشرق الإسلامي وعمان عبر الطريقين الشمالي الساحلي والصحراوي الداخلي، في الوقت الذي طوّر أباضية عمان تجارتهم مع بلاد الهند وشرقي إفريقية. وأحياناً كان الاتصال التجاري بين البلدين يتم عبر مكة والمدينة، وهو أمر أشار إليه الشماخي(١٣٨).

لذلك لم يكن غريباً أن تعرف المدن العمانية رواجاً تجارياً هاماً، ولعل شهادة ابن حوقل(١٣٩) عن مدينة صحار كفيلة بترسيخ ما نذهب إليه؛ فقد وصفها بقوله: «وبها من التجار والتجارة ما لا يحصى كثرة»، بينما أعجب المقدسي(١٤٠) بأسواقها فوصفها بأن بها «أسواق عجيبة».

وقد ساهم التجار اليهود في حركة المبادلات التجارية بين عمان والمغرب والأندلس، فكانوا ينقلون البضائع المشرقية من المغرب إلى الشام ويصلون بها إلى عمان، ومن هناك نحو الهند والصين(١٤١)، ومن خلال كتاب "عجائب الهند" تتأكد بعض معالم هذه الرحلة(١٤٢). وكان يهود سجلماسة بجنوب المغرب يحتكرون على الخصوص استغلال مناجم الفضة والذهب، في حين كانت الجالية اليهودية بصحار تمارس التجارة عن طريق القروض المالية(١٤٤).

من كل ما تقدم، يتضح أن الحركة التجارية بين المغرب وعمان وصلت إلى أرقى درجات النشاط والحيوية، فما هي الآثار التي تمخضت عنها بالنسبة للبلدين.

أثر الصلات التجارية على عمان والمغرب

من الطبيعي أن تسفر حركة التبادل التجاري النشيطة بين عمان والمغرب عن نتائج بعيدة الغور ساهمت في تنمية مواردها الاقتصادية والبشرية والعمرانية، بل إن الازدهار التجاري انعكس إيجاباً حتى على المجالات السياسية والدينية والمذهبية والثقافية.

فعلى المستوى الاقتصادي، عرف البلدان معاً انتعاشاً اقتصادياً واضح المعالم، فعمان بتعاملها التجاري مع بلاد المغرب، كسبت قاعدة تجارية هامة أمدتها بكافة احتياجاتها، خاصة ذهب السودان ، ولاغرو فقد أصبح التجار الأباضيون على صلة وثيقة بهذه المنطقة بواسطة المغرب.

كما مكّن التعاون بين أباضية عمان والمغرب من تذليل الصعوبات التجارية وتنمية إمكانيات التطور والاستثمارات، حتى وجد كل طرف في الآخر "شريكاً اقتصادياً" إذا جاز التعبير، مما أسهم في رفع مستوى المعاملات التجارية. وبالمثل تمكن العمانيون من توفير رؤوس أموال ضخمة ساعدتهم على مدّ حركتهم التجارية نحو الشرق الأقصى(١٤٥)، حتى تشكلت في البصرة – دار هجرة العمانيين – طبقة من كبار التجار الأثرياء الذين استثمروا أموالهم وأعدّوا الصفقات التجارية الكبرى، وامتلكوا السفن والمراكب(١٤٦).

كما شكلوا في سجلماسة المغربية نواة لفئة اجتماعية ثرية حققت الأرباح الضخمة(١٤٧). وانعكس ذلك على أحوال الدولة التي اغتنت حتى أن مبلغ أتاوتها لبغداد بلغ سنة ٢٣٧هـ ثلاثمائة ألف دينار ذهباً(١٤٨).

وبفضل أحكام تعاملها مع بلاد المغرب، حرّمت أمامة عمان العباسيين من الاستفادة من موارد هذه المنطقة، مما ساهم في زعزعة اقتصادهم وإضعافهم سياسياً كما سنذكر.

وعلى غرار عمان، استفادت بلاد المغرب من رواج الحركة التجارية بينهما فأصبحت المدن المغربية تعج بضروب شتى من أصناف السلع المشرقية والسودانية، وتكونت فيها رؤوس أموال ضخمة أثارت انتباه الجغرافيين(١٤٩)، حتى أن أحد أكبر التجار ويدعى يبين بن زلغين المزاتي كان يملك في تاهرت رأس مال كبير عدّ بمئات الآلاف من الإبل والغنم، فضلاً عن ١٢ألف رأس من الحمير(١٥٠). ووصلت بعض المناطق الاقتصادية إلى ذروة قوتها التجارية، مما حدا بأحد الباحثين(١٥١) إلى وصف أهل تاهرت بأنهم «أمة تاجرة».

وازدهرت المدن المغربية بشكل واسع النطاق، حتى أن تاهرت على سبيل المثال أصبحت أنموذجاً للمدينة "الميتروبولية"، بل غدت تضاهي بغداد حتى نعتتها

المصادر «ببغداد المغرب»[١٥٢] و« بلخ المغرب»[١٥٣]. ولهذه التشبيهات مغزى عميق، إذا علمنا أن بغداد كانت عاصمة تجارية عالمية وأن بلخ كانت أهم مدن خراسان وأوفرها تجارة وأموالاً. ومن القرائن التي تؤكد ما وصلت إليه تاهرت من ازدهار واسع بفضل صلاتها التجارية مع عمان، ما ذكره ابن الصغير[١٥٤] عن سكان هذه المدينة أنه قد «علت وجوههم سيماء الحضارة والرفاهية، وبدت من محياهم آثار النعمة والغنى». ومن مظاهر هذا الثراء أن أحدهم - ويدعى ابن وردة كان يملك سوقاً خاصاً به[١٥٥]. أما سجلماسة فقد صار أهلها في غاية الثراء بفضل حركتهم التجارية نحو السودان لتنشيط عملية تبادل السلع مع العمانيين[١٥٦]، في الوقت الذي أصبح سكان مدينة فاس يكونّون مجتمعاً من الأثرياء كما تدل على ذلك شهادات الرحالة[١٥٧]

وانعكس هذا الازدهار التجاري كذلك في العملة التي كانت تضرب بمعدن الذهب[١٥٨] إذ يذكر المقدسي[١٥٩] أن التعامل بهذه الدنانير قد شاع في بلاد المغرب. كما توفرت لدى العمانيين في بعض المدن رؤوس أموال ضخمة حتى أن صحار وصفت بكونها أكثر المدن أموالاً [١٦٠]

وبالمثل انتعشت أسواق البلدين وعرفت صحوة اقتصادية قلّ نظيرها، وأوصاف الجغرافيين في هذا الصدد غنية عن كل بيان. فأسواق **صحار** ترد في نصوص الجغرافيين بأنها «أسواق عجيبة»[١٦١] بل غدت مجتمعاً للتجار حسب تعبير الحميري[١٦٢]، والقول نفسه ينطبق على أسواق مدينة نزوى[١٦٣]. أما مدينة **قلهات** فقد وقف عليها ابن بطوطة وشاهدها بالعيان فأكد أنها «حسنة الأسواق»[١٦٤]. بينما صارت دبا أهم أسواق العرب بعمان و«أحد فرضتي العرب»[١٦٥] يأتيها التجار من كل فج عميق. والقول ذاته ينطبق على أسواق المدن المغربية، فواحة درعة الواقعة على الطريق المار إلى السودان أصبح بها «أسواق جامعة ومتاجر رابحة»[١٦٦]. ووجدت بمدينة **نفيس** «سوق نافقة»[١٦٧]. أما **سجلماسة** فأسواقها غنية عن كل بيان،

ولا غرو فقد بلغت فيها الحركة التجارية ذروتها؛ وقد علّق ابن حوقل[١٦٨] على كل من كان بها من تجار البصرة – وضمنهم العمانيون دون شك– بقوله: «فهم وأولادهم وتجارتهم دائرة... وقوافلهم غير منقطعة«فهم وأولادهم وتجارتهم دائرة... وقوافلهم غير منقطعة»، ووصل التعامل التجاري في أسواقها إلى حد استعمال الصك[١٦٩]. وفي نفس السياق تذكر المصادر أن جزائر بني مزغنا صارت «تجارتها مربحة وأسواقها قائمة»[١٧٠]. ومن البديهي أن ينعكس الأمر كذلك على تاهرت – موطن الأباضيين– وهو ما أكده الحميري الذي أشاد بأسواقها ونشاطها التجاري الكثيف[١٧١].

وبانتعاش الأسواق، رخصت الأسعار، وأصبحت الحياة المعيشية في متناول عامة الناس حتى أن الفواكه واللحوم في بعض مدن المغرب الأوسط أصبحت في القرن السادس الهجري «تباع بالثمن اليسير»[١٧٢].

وانعكس أثر الصلات التجارية كذلك على المجال العمراني، فكثر البناء، وازدهرت حركة العمران، واتسع المجال الأخضر، وتعددت المرافق الاقتصادية والاجتماعية. وفي هذا السياق، وصف أحد المؤرخين[١٧٣] مدينة تاهرت عندما زارها وفد من أباضية عمان في عهد عبد الرحمن بن رستم بقوله: «فوجدوا –وفد الأباضيين العمانيين– الأمور قد تبدلت.. وذلك أنهم قد نظروا إلى قصور قد بنيت وإلى بساتين قد غرست، وإلى أرحاء قد نصبت».

ويذكر نفس المؤرخ أن عمران المدينة في عهد الإمام أفلح بن عبد الوهاب قد استبحر حتى «ابتنى الناس قصوراً والضياع خارج المدينة، وأجروا الأنهرً فابتنى أبان وحمويه القصرين المعروفين لهما، وابتنى عبد الواحد قصره الذي يعرف به اليوم»[١٧٤]، لذلك لا غرابة أن تشبهها المصادر ببغداد المغرب كما سلف القول. وبالمثل عرفت سجلماسة حركة مضطردة حتى أصبحت حسب وصف الإدريسي[١٧٥] «قصور وديارات وعمارات متصلة». وأسهمت الحركة الاستثمارية للتجار في

استبحار العمران، حسبنا دليلاً على ذلك ما ذكرناه عن بناء ابن وردة سوقاً خاصة. وعلى غرار المدن المغربية شهدت المدن العمانية توسعاً في المجال العمراني، فأقام أهلها في بيوتات شاهقة نفيسة مبنية بالآجر والساج، مزودة بالرياش الجميلة(١٧٦). كما أن انتعاش الأسواق وكثرتها بالمدن العمانية كما سلف الذكر، ساهم بدوره في انعاش الحركة العمرانية.

من جهة أخرى، تمخض عن الحركة التجارية نمو ديموغرافي بسبب إقبال التجار من مختلف الجنسيات على البلدين والاستيطان فيهما. فقد تقاطرت وفود كبيرة من التجار العمانيين على مختلف المدن المغربية كتاهرت وسجلماسة وورجلان وغيرها. وصحب هؤلاء التجار معهم عائلاتهم التي وجدت الطمأنينة والأمان، فاختارت هذه المدن مستقراً لها. وفي هذا المعنى يشير أحد المؤرخين(١٧٧) إلى البنايات التي أقامها تجار المشرق وقبائل نفوسة في مدينة تاهرت. وكانت عائلات التجار العمانيين أكثر حضوراً في هذه المدينة لغلبة المذهب الأباضي عليها، ومنذ استقرت عائلات عمانية كثيرة(١٧٨). وبذلك تغيرت الخريطة السكانية، ووقع الامتزاج والانصهار بين العمانيين والمغاربة.

ولم يقتصر الأمر على تاهرت وحدها، بل شمل هذا الانصهار كافة المدن الأخرى التي استقر فيها التجار الوافدون؛ فابن خوقل(١٧٩) في وصفه مدينة سجلماسة، يذكر توافد تجار البصرة عليها، ويؤكد على تواجدهم في هذه المدينة كعنصر بشري ساهم في فعالية التجارة. كما أن اعتناق المذهب الأباضي من طرف سكان الواحات المغربية الجنوبية دليل واضح على تواجد أباضية عمان فيها، في حين فضل بعضهم الاستيطان في بلاد السودان تسهيلاً للمعاملات التجارية، فاستقروا في غانة ومدينة جارو(١٨٠) ومملكة مالي(١٨١) وغيرها من الديار السودانية. وبالمثل، شهدت المدن العمانية ازدهاراً عمرانياً، خاصة مدينة صحار التي يصفها ابن حوقل(١٨٢) بأنها «أعمر مدينة بعمان وأكثرها مالاً، ولا يكاد يعرف على شط بحر فارس بجميع

الإسلام مدينة أكثر عمارة ومالاً من صحار». ورغم أن قلهات وصور جاءتا في وصف الإدريسي[١٨٣] في صورة مدينتين صغيرتين، فإنه مع ذلك وصفها بالمدينتين العامرتين.

أما على المستوى السياسي، فقد سبق أن ذكرنا أن الأباضية العمانيين بفضل أحكام صلتهم التجارية ببلاد المغرب، نجحوا في الحيلولة دون استفادة أعدائهم العباسيين من موارد هذه المنطقة، الأمر الذي ساهم في إضعاف هؤلاء، فحقق أباضية عمان هدفين مزدوجين إذ: كسبوا قاعدة تجارية بالمغرب من جهة، وأفلحوا في إقامة الإمامة الثانية سنة ١٧٧هـ من جهة أخرى. وقد فشل العباسيون في مناجزتهم حتى أن حملة الخليفة هارون الرشيد إلى عمان سنة ١٨٩هـ عادت تجر أذيال الخيبة والفشل، ومن ثم حافظت عمان على استقلالها[١٨٤].

وفي نفس المنحى، تمكن أباضية المغرب من تدعيم مركزهم السياسي، فترسخت أقدام الأباضيين بالمغرب الأقصى والأوسط والأدنى؛ وحسبنا دليلاً على ذلك أن الإمارة الرستمية لم تسقط تحت ضربات الفاطميين إلا بصعوبة كبيرة. ومع ذلك ظل المذهب الأباضي فارضاً نفسه في تاهرت[١٨٥].

ومن البديهي كذلك أن تسفر الصلات التجارية بين عمان وبلاد المغرب عن تدعيم المذهب الأباضي وانتشاره في مختلف الأصقاع. فالدعوات المذهبية في أمس الحاجة إلى قاعدة مادية تمونها، وقد فطن إلى ذلك دعاة المذهب الأباضي، فوجدوا في التجارة أداة من الأدوات التي تتوج جهودهم. لذلك ما إن استحكمت العلاقات التجارية بين البلدين حتى شبّ عود المذهب الأباضي وازداد رسوخاً وانتشاراً، وحسبنا أنه اكتسح كل بلاد المغربين الأدنى والأوسط، فضلاً عن جزر أباضية قدر لها الانتشار في المغرب الأقصى وواحاته الجنوبية[١٨٦]، بل امتدت لتشمل بلاد السودان وتستمر فيها إلى عهد ابن بطوطة في القرن الثامن الهجري[١٨٧]. ويرجع الفضل في ذلك إلى جهود التجار الأباضيين الذين كانوا يقومون بأعمالهم التجارية، وينشرون مذهبهم في ذات

الوقت، لذلك لم يكن غريباً أن يتحول العديد من الصفرية إلى الأباضية[١٨٨] حتى أن سجلماسة موئل الصفرية أصبحت «عامرة بالأباضية» على حد قول الباروني[١٨٩]. كما أن مجموعات كبيرة من قبائل هوارة وزناته اعتنقت المذهب الأباضي بفضل دعاية التجار العمانيين[١٩٠]. كذا الحال بالنسبة لمعظم القبائل الضاربة في الصحراء الليبية، خاصة لواتة، نفوسة ونفزاوة[١٩١]، بل إن النفزاويين تحولوا عن المذهب الصفري إلى المذهب الأباضي[١٩٢].

ومن الأهمية بمكان الإشارة إلى ما ارتبط بالصلات التجارية بين عمان والمغرب من نتائج دينية تمثلت في نشر الإسلام كثمرة من ثمار الدعوة الأباضية. ولا غرو فإن معظم التجار كانوا من فطاحلة علماء الأباضية، فتمكنوا بفضل غزارة علمهم، وبما جبلوا عليه من سجايا حميدة أن يفقهوا بربر المغرب في شرائع دينهم. كما نجحوا في لفت أنظار سكان السودان فأقبلوا على اعتناق الإسلام. ويقدم إسلام السلطان مالي أنموذجاً رائعاً في هذا الصدد[١٩٣].

وفيما يخص أثر الصلات التجارية بين عمان والمغرب على المستوى الثقافي، يمكن القول أن التجار الأباضيين تركوا بصمات واضحة المعالم في هذا الميدان. ومن القرائن التي تثبت ما ذكره الدرجيني[١٩٤] من أن ابن الجمع أحد علماء الأباضيين العمانيين قدم تاجراً إلى سجلماسة، وعنه تلقى أقطاب الأباضية المغاربة العلم مثل أبو الربيع وأبو مخلد بن كيداد وغيرهم. وقد ربط الباروني[١٩٥] في أزهاره ربطاً محكماً ما بين التجارة والثقافة في نص فريد عن رحلة أبي الربيع سليمان بن زرقون النفوسي إلى سجلماسة فقال: «رحل إليها مع العالم النحرير أستاذه ابن الجمع مع علماء أباضية الشرق وتجارها العظام». ومن كثرة إقبال التجار على هذه المدينة المغربية وتعليم أهلها ما جعله يخلص إلى القول بأنها «كانت عامرة بالأباضية،حافلة بعلمائهم»[١٩٦]، وفي ذلك دليل على تأثير التجارة على الميدان الثقافي، لأن العلم ظل ملازماً للتجارة في المشروع الأباضي.

ومن القرائن الأخرى التي يمكن أن نسوقها كذلك عن أثر التجارة في المجال الثقافي ما أورده ابن سلام[١٩٧] عن أحد علماء نفوسة الذي حفظ القرآن عن طريق لقائه بتجار المشارقة والعمانيين الوافدين إلى المغرب.

وعلى العموم أسفرت جهود التجار العمانيين في الثقافة والتعليم على نتائج محمودة سبق أن خصصنا لها دراسة مستقلة[١٩٨]، لذلك نكتفي بإعطاء أهم الخلاصات في هذا المقام.

فبفضل الجهود المضنية التي قام بها التجار الأباضيون، ترسخ المذهب الأباضي في بلاد المغرب كما سلف الذكر، مما زاد في تمتين عرى الوحدة الفكرية بين أباضية عمان وأباضية المغرب، وسمح بظهور "**مدرسة عمانية – مغربية**" أصبح لها موقف موحد من القضايا الفكرية.

كما نجم عن تدفق التجار الأباضيين على بلاد المغرب نشوء مراكز ثقافية كبرى مثل **سجلماسة وتاهرت**، التي غدت قبلة للعلماء ومركز إشعاع ثقافي. بينما نشأ في البوادي ما يعرف بالمدارس المتنقلة، حيث كان التجار الأباضيون يخرجون على ظهور جمالهم مزودين بالحصر، ويمرون على الناس، ويبسطون الحصر لمن يريد أن يتعلم من أبناء البادية[١٩٩].

وتمخض عن جهود تجار الأباضيين إقرار نظام تعليمي له أسسه وأهدافه التربوية، وهو النظام الذي عرف لدى **عزابة الجريد**[٢٠٠].

وبالمثل فإن ارتباط حركة التجار بالعلم والثقافة، مكن المرأة المغربية من الارتشاف من مناهل العلوم والمعارف إذ يذكر أبو زكريا[٢٠١] أن أخت عمروس بن فتح قاضي الإمام يوسف بن أفلح «كانت عالمة فقيهة»، بل إن إمرأةً عجوزاً في إحدى قرى جبل نفوسة كانت عالمة بدقائق المذهب الأباضي، وكان الناس يستفتونها فيما أشكل عليهم من مسائل فقهية[٢٠٢]، فضلاً عن نماذج أخرى يطول بنا المقام لو عرضناها أولاً بأول[٢٠٣].

قصارى القول أن الصلات التجارية بين عمان وبلاد المغرب في العصر الإسلامي الوسيط شكلت ظاهرة اقتصادية فريدة بصمت تاريخ البلدين ببصمات واضحة، وتميزت بالاستمرارية، واستطاعت خلق تكامل اقتصادي بين البلدين، وأدت إلى انتعاش شمل كافة المجالات، كما أنها جسدت أنموذجاً للشراكة التجارية بين بلدان العالم العربي ونمطاً من أنماط سيولة الاقتصاد الإسلامي في العصر الإسلامي الوسيط.

هوامش البحث

* المقصود ببلاد المغرب هنا المنطقة الممتدة من المغرب الأقصى حتى ليبية، والعصر الإسلامي هو ما يطابق الناحية الزمنية العصر الوسيط في أوروبة.

(١) تستثنى بعض الدراسات التي عالجت التجارة العمانية بصفة عامة أو جوانب اقتصادية أخرى، وهي حسب حدود اطلاعنا:

- رجب محمد عبد الحليم: العمانيون والملاحة والتجارة ونشر الإسلام، مسقط ١٩٨٩.
- عبد الرحمن عبد الكريم العاني: دور العمانيين في الملاحة والتجارة الإسلامية حتى القرن الرابع الهجري. منشورات وزارة التراث القومي والثقافة، مسقط ١٩٨١، سلسلة تراثنا، عدد ٢٦.
- ولنفس المؤلف: عمان في العصور الإسلامية الأولى ودور أهلها في المنطقة الشرقية من الخليج العربي في الملاحة والتجارة الإسلامية. أطروحة جامعية نوقشت في كلية الآداب ببغداد سنة ١٩٧٥.
- محمد أبو الفرج العش: النقود العمانية من خلال التاريخ الإسلامي. منشورات وزارة التراث القومي والثقافة، مسقط ١٩٨٤، سلسلة تراثنا، عدد ٥٤.

- وبخصوص الجوانب النقدية في الاقتصاد العماني خلال العصر الإسلامي، ثمة أبحاث أجنبية مثل:

- Bivar, A.D.H and Sterm, S.M: **The coinage of Oman under Abu-kalijar the Buwayhid**
- N.chr.Scries 6, vol XVIII (1958), PP141-148.
- Bates, M.L: **unpblished wajihid and Buyid coins from Oman. In:** Arabian Studies, vol I, 1974
- (Notes and communications).

كما أن هناك بعض الأبحاث التي قدمت في ندوة "عمان في التاريخ" وسيجري توظيفها في هذا البحث.

(٢) يذكر أن مجموعة من العمانيين الأباضيين لجأوا إلى شرق افريقية هرباً من تعسفات الحجاج بن يوسف الثقفي سنة ٥٧٥، فاستقروا بها وأخذوا يمارسون التجارة، فكان ذلك نواة لنشاط العمانيين التجاري في هذه المنطقة. انظر سعيد عبد الفتاح عاشور وعوض محمد خليفات: **عمان والحضارة الإسلامية** . منشورات جامعة السلطان قابوس، مسقط ١٩٩٤. (ط٩)، ص:٢٦٢. وانظر كذلك رجب محمد عبد الحليم: **العمانيون والملاحة التجارية...** ص٢٠٦.

(٣) انظر: محمد ناصر: **دور الأباضية في نشر الإسلام بغرب افريقية**. مسقط (دون تاريخ) مكتبة الضامري للنشر والتوزيع، ص٢.

(٤) المصدر نفسه ص٥.

(٥) يستثنى من ذلك المبحث الذي ضمنه د. رجب محمد عبد الحليم كتابه: **الأباضية في مصر والمغرب وعلاقتهم بإباضية عمان والبصرة**. مسقط ١٩٩٠، مكتبة العلوم. ص- ص: ١٧٩-١٩٥.

(٦) محمود إسماعيل: **الخوارج في بلاد المغرب**. طبعة بيروت ١٩٧٦، بيروت، دار العودة –القاهرة مكتبة مدبولي، ص٢٨ وما بعدها.

(٧) رجب عبد الحليم : **العمانيون والملاحة والتجارة...** ص ٤٣ –العاني: **دور العمانيين في الملاحة...** ص٦.

(٨) **أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم**. نشر De Gojie، طبعة بريل ليدن ١٩٦٧. (ط٢) ص:٩٢،٩٣.

(٩) ابن الفقيه: **مختصر كتاب البلدان**، ليدن ١٩٦٧، ص١١،١٢.

(١٠) أندرو ويليامسون: **صحار عبر التاريخ**، ترجمة محمد أمين عبد الله، مسقط ١٩٨٢ (ط٢)، منشورات وزارة التراث القومي والثقافة، العدد الثاني، ص١٧.

(١١) المقدسي: م.س، ص ١٢٨.

(١٢) العاني :م.س . ص٢٣.

(١٣) تشانغ زون يان: **الاتصالات الودية المتبادلة بين الصين وعمان عبر التاريخ**. مسقط (دون تاريخ)، منشورات وزارة التراث القومي والثقافة عدد ٢١، ص٥.

(١٤) نفسه، ص١٤.

(١٥) القلقشندي: **صبح الأعشى**. شرحه وعلق عليه نبيل خالد الخطيب، بيروت ١٩٨٧، دار الكتب العلمية، ج٥، ص٥٣.

(١٦) **عمان تاريخاً وعلماء**. ترجمة محمد أمين عبد الله -مسقط ١٩٨٠(ط٢). منشورات وزارة التراث القومي والثقافة. العدد ١٠ ص١٤.

(١٧) العقيلي: **الأباضية في عمان وعلاقتها مع الدولة العباسية في عصرها الأول**. مسقط ١٩٧٤ منشورات وزارة التراث القومي والثقافة. ص١٤.

(١٨) رجب محمد عبد الحليم: **العمانيون والملاحة والتجارة**... ص٤٤.

(١٩) عن حملة هارون الرشيد ومحمد بن نور على عمان انظر: مؤلف مجهول: **كشف الغمة الجامع لأخبار الأمة**. تحقيق ودراسة وتعليق أحمد عبيد لي، نيقوسيا ١٩٨٥، دلممون للنشر: ص: ٢٥٥، ٢٧٢-٢٧٣. انظر أيضاً :وندل فليبس: **تاريخ عمان**. ترجمة محمد أمين عبد الله، مسقط ١٩٩٤ (ط٤) منشورات وزارة التراث القومي والثقافة، ص٢٠-٢١.

(٢٠) ولكنسون: م.س. ص٢٨.

(٢١) **كتاب العبر**. تحقيق خليل شحاذة، بيروت ١٩٨١، دار الفكر، ج٦، ص١٠١.

(٢٢) الجنحاني: **دور عمان في نشاط التجارة العالمية خلال العصر الإسلامي الأول**. مجلة المؤرخ العربي، عدد ٣٣ سنة ١٩٨٣، ص٩.

(٢٣) سعيد عبد الفتاح عاشور وعوض خليفات: م.س. ص٦.

(٢٤) ياقوت الحموي: **معجم البلدان**. بيروت (دون تاريخ)، دار الكتاب العربي، ج٣، ص١٥٠. ويذكر نفس الرواية الحميري، ولكنه لا ينسب القول المذكور إلى الرسول (ص). انظر: **الروض المعطار**، تحقيق إحسان عباس، بيروت ١٩٨٤، (ط٤)، مكتبة لبنان، ص٤١٣.

(٢٥) رجب محمد عبد الحليم: **العمانيون والملاحة والتجارة....** ص٤٨.

(٢٦) الحميري: م.س، ص٢١٠، ويذكر في هذا النص أن سفناً عمانية كانت تصل إلى مدينة خانفو الصينية.

(٢٧) الجنحاني: م.س، ص١٠.

(٢٨) رجب محمد عبد الحليم: **العمانيون والملاحة والتجارة..** ص٤٩.

(٢٩) السيابي: **عمان عبر التاريخ**. منشورات وزارة التراث القومي والثقافة، مسقط ١٩٨٦(ط٢)، ج٢، ص٩٨ -رجب محمد عبد الحليم: **العمانيون والملاحة والتجارة..** ص٤٩.

(٣٠) العاني: **دور العمانيين في الملاحة...** ص٥.

(٣١) يوسف غوانمة: "**عمان في كتب الجغرافيين العرب**". بحث قدم لندوة "عمان في التاريخ" (مرقون) -رجب محمد عبد الحليم: **العمانيون والملاحة والتجارة...** ص٥٤.

(٣٢) **أحسن التقاسيم**، ص٣٥.

(٣٣) **نزهة المشتاق في اختراق الآفاق**. نشر بعناية E.Ceruli وآخرون، طبعة نابولي روما ١٩٨٤، منشورات المعهد الجامعي الشرقي لنابولي. ج٢، ص١٦٢.

(٣٤) **تحفة النظار**. بيروت ١٩٨٦، دار التراث، ص٢٥١.

(٣٥) السيد عبد العزيز سالم: "**الملاحون العمانيون سادة البحار الجنوبية في العصر الإسلامي**". بحث قدم لندوة "عمان في التاريخ" (مرقون)، ص٧.

(٣٦) **نفسه**، ص٨،٩.

(٣٧) تشانغ زون يان: م.س. ص١٤.

(٣٨) **نزهة المشتاق**، ج٢، ص١٥٢.

(٣٩) أورد د.العاني نصاً لبرزك يتضمن أسماء بعض التجار العمانيين الذين كانوا يملكون مراكب خاصة. انظر: م.س، ص١٧. عن برزك: **كتاب عجائب الهند** ص١٣٢-١٣٤.

(٤٠) **المسالك والممالك**. مكتبة المثنى، بغداد (دون تاريخ)، ص٦٠، ١٤٧-١٤٨.

(٤١) الاصطنخري: **مسالك الممالك**. ليدن١٩٧٦. ص٢٦-٢٨. وانظر كذلك: ابن حوقل: **صورة الأرض**، نشر دار مكتبة الحياة، بيروت١٩٧٩؟ ص٤٥-٤٧.

(٤٢) **صورة الأرض**، ص٨٠.

(٤٣) رجب محمد عبد الحليم: م.س، ص١٨١.

(٤٤) **أحسن التقاسيم**، ص٩٧.

(٤٥) الاصطخري: م.س، ص٣٣.

(٤٦) **صبح الأعشى**، ج٥، ص٥٤، ١٤٧.

(٤٧) **نفسه**، ص١٦.

(٤٨) رجب محمد عبد الحليم: م.س، ص١٨٣.

(٤٩) دبوز: **تاريخ المغرب الكبير**. القاهرة ١٩٦٣، ج٣، ص٣٥١.

(٥٠) محمد عيسى الجريري: **مقدمات البناء السياسي للمغرب الإسلامي: الدولة الرستمية**. الكويت ١٩٨٣، دار القلم، ص٢٣٣.

(٥١) مجموعة من علماء عمان: **السير والجوابات**. تحقيق سيدة اسماعيل كاشف، القاهرة ١٩٨٦،ج١،ص٣٠٠.

(٥٢) **أخبار الأئمة الرستميين**. تحقيق وتعليق د. محمد ناصر والأستاذ إبراهيم بحاز، بيروت ١٩٨٦، دار الغرب الإسلامي، ص٣٦.

(٥٣) رجب محمد عبد الحليم: م.س، ص٨٥.
(٥٤) أخبار الأئمة الرستميين، ص٣٦-٣٧.
(٥٥) أحمد إلياس حسين: الأباضية في المغرب العربي. مسقط ١٩٩٢، مكتبة الضامري للنشر والتوزيع، (ط١)، ص٢٠-٢١.
(٥٦) سليمان الباروني: الأزهار الرياضية. ج٢، ص١٣٧.
(٥٧) دبوز: م.س، ج٣، ص٣٥٤.
(٥٨) أخبار الأئمة الرستميين. ص٦١، ١٠٤، ٧١-٧٢.
(٥٩) كتاب السير. منشورات وزارة التراث القومي والثقافة، مسقط ١٩٨٧، ج١، ص١٤٢.
(٦٠) ابن بطوطة: م.س، ص٢٥١.
(٦١) نفس المصدر والصفحة.
(٦٢) المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب. نشره دي سيلان، الجزائر ١٩١١، ص٣٧ –الحميري: م.س، ص٣٥٤.
(٦٣) تقع كوكو في منحنى نهر النيجر بالسودان الغربي.
(٦٤) الدرجيني: طبقات مشايخ الأباضية. تحقيق إبراهيم طلاي، قسطنطينية – الجزائر، ج٢، ص٣٢٠.
(٦٥) عمان عبر التاريخ، ج١، ص٢٢٠.
(٦٦) ابن سلام الأباضي: الإسلام وتاريخه من وجهة نظر أباضية. تحقيق: ر.ف. شفارتز وسالم يعقوب، بيروت ١٩٨٥، دار إقرأ، ص١٦٣.
(٦٧) نفسه، ص١٦٦.
(٦٨) دبوز: م.س،ج٣، ص٣٢٠، ٣٣٨-٣٣٩.
(٦٩) ابن عذارى: البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب. تحقيق بروفنسال وكولان، بيروت ١٩٨٠، دار الثقافة (ط٢)،ج١، ص١٥٦. انظر أيضاً: ابن

خلدون: **كتاب العبر**. بيروت ١٩٧٩، مؤسسة جمال للطباعة والنشر، ج٦، ص١٣٠.

(٧٠) ابن الصغير: م.س، ص٧١ -أحمد إلياس: م.س، ص٦٣.

(٧١) مؤلف مجهول: **كشف الغمة**، ص١٤٨.

(٧٢) **نفسه**، ص٢٥٣.

(٧٣) **نفسه**، ص ٢٥٤-٢٥٥.

(٧٤) **نفسه**، ص ٢٥٧.

(٧٥) **نفسه**، ص ٢٥٩.

(٧٦) العقيلي: م.س، ص٣٤.

(٧٧) انظر: **كشف الغمة**، ص٢٤٨. وراجع ما يذكره الإمام ابن المؤثر حول عدم انصاف الإمام راشد بن النظر للمظلومين وذلك في كتاب السير والجوابات، ج١، ص٥٤-٥٦، ٤٢٢-٤٢٣.

(٧٨) **تحفة النظار**، ص٢٥١.

(٧٩) **نفسه**، ص ٢٦٢.

(٨٠) أحمد إلياس حسين: م.س، ص٦١.

(٨١) ابن سلام الأباضي: م.س،ص١٣١.

(٨٢) **نفسه**، ص١٣٥.

(٨٣) **نفسه**، ص١٤٩.

(٨٤) طبقات مشايخ الأباضية، ج١، ص١٠٩.

(٨٥) ابن الصغير: م.س،ص٧١.

(٨٦) **نفسه**، ص١٠٤.

(٨٧) **مختصر كتاب البلدان**، ص٥١. انظر: سوادي عبد محمد: **"صلات تجارية بين البصرة والمغرب الإسلامي من القرن الثامن الهجري حتى أواخر القرن**

الرابع". مجلة المؤرخ العربي، عدد ٤٣، سنة ١٩٩٠، ص ١٥٦.

(٨٨) ابن الفقيه: م.س، ص١٧.

(٨٩) **معجم البلدان**، ج٤، ص٦٠.

(٩٠) ابن حوقل: م.س، ص٤٤.

(٩١) أبو الفدا: **تقويم البلدان**، باريس ١٨٤٠، دار الطباعة السلطانية، ص٢٢.

(٩٢) ابن الفقيه: م.س، ص ١٦،٣٠.

(٩٣) ابن بطوطة: م.س،ص ٢٥٢.

(٩٤) **أحسن التقاسيم** ، ص٩٧.

(٩٥) سوادي عبد محمد: م.س، ص١٥٧.

(٩٦) البكري: م.س، ص١٥٩.

(٩٧) ابن حوقل: م.س، ص٧٥.

(٩٨) الإدريسي: م.س ،ج٣، ص٢٥٦.

(٩٩) اليعقوبي: **كتاب البلدان**، ليدن ١٨٩١، ص٣٥٣.

(١٠٠) **أخبار الأئمة الرستميين**، ص٦١.

(١٠١) **نفسه**، ٦٢.

(١٠٢) **نفسه**، ٦٣.

(١٠٣) **نزهة المشتاق**، ج٣، ص٢٣٢.

(١٠٤) **وصف إفريقية**، ج٢، ص١٣٦.

(١٠٥) رجب محمد عبد الحليم: م.س،ص١٩١.

(١٠٦) الوزان: م.س،ج٢، ص٩٤-٩٥.

(١٠٧) هي لغة مجموعة الكاتوري التي كانت تقطن في حوض بحيرة تشاد. انظـر: أحمد إلياس حسين: م.س،ص٦٤.

(١٠٨) رجب محمد عبد الحليم: م.س، ص١٩٢.

(١٠٩) توجد على بعد ٧٧٠ كم جنوب شرقي مدينة طرابلس.

(١١٠) البكري: م. س، ص١٠.

(١١١) **نزهة المشتاق**، ج٣، ص٢٣٢.

(١١٢) **نفسه**، ص٢٦٠.

(١١٣) محمود إسماعيل: م. س، ص٢٠٨.

(١١٤) **العبر**، ج٦، ص١٣٠.

(١١٥) **نفسه**، ص١٣١.

(١١٦) محمود إسماعيل: م. س، ص٢٠٨.

(١١٧) أحمد إلياس حسين: م. س،ص ٤٠.

(١١٨) ابن حوقل: م. س، ص٤٤.

(١١٩) **كتاب المحبر**، ص٢٦٥-٢٦٦/ عن: العاني: م. س. ص٣١.

(١٢٠) الدرجيني: م. س. ج٢، ص٤٠٤.

(١٢١) ابن حوقل: م.س، ص٧٥, ٧٦، ٧٧.

(١٢٢) الحميري: م.س،ص٣٠٥.

(١٢٣) البكري: م.س. ص٦٤/ الحميري: م. س،ص٣٠٥.

(١٢٤) الإدريسي: م. س، ج٣، ص٣٠٣.

(١٢٥) **نفسه**، ص٣١١.

(١٢٦) الحميري: م. س،ص٣٢٩.

(١٢٧) محمود إسماعيل: م. س ،ص ٢٠٦-٢٠٧.

(١٢٨) **طبقات مشايخ الأباضية**، ج٢، ص٣٥٥.

(١٢٩) **تحفة النظار**، ص٢٥١.

(١٣٠) **أحسن التقاسيم**، ص٩٩.

(١٣١) محمد أبو الفرج العش: **النقود العمانية...** ص٢٧.

(١٣٢) محمد باقر الحسيني: "**الدور الإعلامي والسياسي للنقود العمانية في العصر الإسلامي حتى نهاية القرن ا لرابع الهجري**". بحث قدّم لندوة "عمان في التاريخ: (مرقون)، ص١٢.

(١٣٣) **نفسه**، ص١١.

(١٣٤) **نفسه**، ص١٧. وأخر نقود عمان تحت النفوذ البويهي وصلتنا لحد الآن دينار ذهب سنة ٣٩٥هـ باسم بهاء الدولة، وهو محفوظ في متحف جمعية النميات بنيويورك.

(١٣٥) حامد زيان: **الحياة في الخليج العربي في العصور الوسطى في ضوء مشاهدات الرحالة ابن بطوطة**. دبي ١٩٨٥، دار القلم، الإمارات العربية للنشر والتوزيع، ص٣٤.

(١٣٦) **صورة الأرض**، ص٦٥.

(١٣٧) **صبح الأعشى**، ج٥، ص١٥٩.

(١٣٨) محمود إسماعيل: **دراسات في التاريخ والفكر الإسلامي**. القاهرة ١٩٩٤(ط١) دار ابن سينا للنشر، ص١٣٤.

(١٣٩) **السير**، ج١،ص١٤٢.

(١٤٠) **صورة الأرض**، ص٤٤.

(١٤١) **أحسن التقاسيم**، ص٩٢-٩٣.

(١٤٢) ابن خردابة: م. س،ص١٥٤. راجع أيضاً: رجب محمد عبد الحليم: **العمانيون والملاحة والتجارة**.. ص٥٨.

(١٤٣) ورد في هذا الكتاب أن إسحق بن اليهودي وقع بينه وبين أحد اليهود نزاع، فغادر عمان نحو الصين وهو لا يملك سوى مائتي دينار، ثم رجع بعد ثلاثين سنة ومعه رأس مال كبير بلف تعشيره ألف درهم. انظر: بزرك، **كتاب**

عجائب الهند، ص٨٠، عن محقق كتاب كشف الغمة الوارد في هذه الهوامش، ص١٠٤.

(١٤٤) اندرو ويليامسون: م. س، ص٢٢.

(١٤٥) للمزيد من التفاصيل حول تجارة عمان مع الشرق الأقصى، راجع: الحبيب الجنحاني: م. س، ص١٧ وما بعدها. وكذلك: سحر السيد عبد العزيز: "عمان وتجارتها مع الشرق الأقصى وشرق إفريقية". بحث قدّم لندوة "عمان في التاريخ" (مرقون)، ص١١ وما بعدها.

(١٤٦) سوادي عبد محمد: م. س،ص١٥٧.

(١٤٧) ابن حوقل: م. س،ص٦٥.

(١٤٨) انظر وصف الإدريسي لمدينتي فاس وأغمات حيث يصفهم بأنهم أكثر الناس أموالاً. انظر: م. س، ج٣، ص٢٤٨.

(١٤٩) الباروني: الأزهار الرياضية، ج٢، ص١٣٧/ دبوز: م. س، ج٣، ص٣٥٥.

(١٥٠) دبوز: م. س، ج٣، ص٣٥٢.

(١٥١) القلقشندي: م. س، ج٥، ص١٠٦.

(١٥٢) المقدسي: م. س،ص٢٢٨.

(١٥٣) أخبار الأئمة الرستميين، ص٣٦،٦١.

(١٥٤) نفسه، ص ٦٢،٦٣.

(١٥٥) القلقشندي: م. س،ج٥، ص١٥٩.

(١٥٦) الحميري: م. س، ص٣٣٤.

(١٥٧) محمد عيسى الحريري: م. س،ص٢٣٥.

(١٥٨) أحسن التقاسيم، ص٢٤٠.

(١٥٩) ابن حوقل: م. س،ص٤٤/ الحميري: م. س،ص٣٥٤.

(١٦٠) المقدسي: م. س، ص٩٢-٩٣.

(١٦١) **الروض المعطار**، ص٣٥٤.

(١٦٢) ابن بطوطة: م. س، ص٢٦٢.

(١٦٣) **نفسه**، ص٢٦٠.

(١٦٤) ياقوت الحموي: م. س، ج٢، ص٤٣٥/ **الحموي**: م. س، ص٢٣٢.

(١٦٥) البكري: م. س، ص١٣٥.

(١٦٦) الإدريسي: م. س،ج٣، ص٢٢٩.

(١٦٧) **صورة الأرض**، ص٦٥.

(١٦٨) الإدريسي: م. س،ج٣، ص٢٥٨.

(١٦٩) **الروض المعطار**، ص١٢٦.

(١٧٠) الإدريسي: م.س ،ج٣، ص٢٥٨.

(١٧١) ابن الصغير: م. س،ص٣٨.

(١٧٢) **نفسه**، ص٦١.

(١٧٣) **نزهة المشتاق**، ج٣، ص٢٢٥.

(١٧٤) يوسف غوانمة: "**عمان في كتب الجغرافيين العرب**". بحث قدم لندوة عمان في التاريخ" (مرقون)، ص٢٦.

(١٧٥) ابن الصغير: م. س، ص٦١-٦٣.

(١٧٦) رجب محمد عبد الحليم: م. س، ص٢١٦.

(١٧٧) **صورة الأرض**، ص٦٥.

(١٧٨) محمد ناصر: م. س، ص١٤، ص١٦.

(١٧٩) الدرجيني: م. س، ج٢، ص٥١٧.

(١٨٠) **صورة الأرض**، ص٤٥.

(١٨١) **نزهة المشتاق**، ج٣، ص١٥٥.

(١٨٢) العقيلي: م.س، ص٣٢-٣٣.

(١٨٣) يذكر الاصطخري أن "الأباضية هم الغالبون على تاهرت". ومن المعروف أنه توفي بعد سقوط الدولة الرستمية (توفي بعد عام ٣٥٠هـ). انظر: **مسالك الممالك**، ص٣٩.

(١٨٤) الباروني: م. س، ج٢، ص٧٨-٧٩.

(١٨٥) **تحفة النظار**، تحقيق علي المنتصر الكتاني، بيروت (دون تاريخ) ج٢، ص٧٧٩.

(١٨٦) أحمد إلياس حسين: م.س، ص٣٩.

(١٨٧) **الأزهار الرياضية**، ج٢، ص٧٨-٧٩.

(١٨٨) محمد ناصر: م. س، ص٦.

(١٨٩) مجمد عيسى الحريري: م. س، ص١٩٣.

(١٩٠) الحارثي: **العقود الفضية**، ص ٢٣٨.

(١٩١) انظر: الدرجيني: م. س، ج٢، ص٥١٧.

(١٩٢) **طبقات مشايخ الأباضية**، ج١، ص١٠٩.

(١٩٣) **الأزهار الرياضية**، ج١، ص٨٢.

(١٩٤) **نفسه**، ص٧٨-٧٩.

(١٩٥) **الإسلام وتاريخه من وجهة نظر أباضية**، ص١٤٩.

(١٩٦) انظر لكاتب هذه السطور: **"التواصل الثقافي بين عمان وبلاد المغرب في العصر الإسلامي**: قراءة في المظاهر والنتائج". بحث قدم للندوة العلمية للتراث العماني المنظمة من طرف جامعة السلطان قابوس بتاريخ ٣-٥ دسمبر ١٩٩٤.

(١٩٧) انظر مقدمة محقق كتاب الدرجيني الوارد في الهوامش السالفة، ج١، ص: د.

(١٩٨) الجعبيري: **نظام الغرابة عند الأباضية الوهبية في جربة**. تونس ١٩٧٥، ص٢٣٩ وما بعدها.

(١٩٩) كتاب السير وأخبار الأئمة، تحقيق: إسماعيل العربي، بـيروت ١٩٨٢(ط٢)، ج١، ص١٥٣.

(٢٠٠) نفسه، ج١، ص٢٦٣.

(٢٠١) قدمنا نماذج متعددة من النساء الأباضيات العالمات بـالمغرب، وذلـك فـي دراستنا الواردة في هامش رقم (١٨٤). ويتم الإعداد حالياً لبحث حول المرأة الأباضية وثقافتها!.

بيبلوغرافية البحث

أولاً: المصادر:

١- ابن بطوطة، محمد بن عبد الله الطنجي (عاش في القرن الثامن هـ): **تحفة النظار المسماة برحلة ابن بطوطة**، بيروت، دار التراث.
طبعة ثانية: تحقيق علي المنتصر الكتاني، بيروت (دون تاريخ) الجزء الثاني.

٢- ابن حوقل، أبو القاسم محمد بن علي بن حوقل الموصلي(ت٣٦٧هـ): **صورة الأرض**، نشر مكتبة دار الحياة، بيروت ١٩٧٩.

٣- ابن خرداذبه: **المسالك والممالك**، مكتبة المثني، بغداد (دون تاريخ).

٤- ابن خلدون عبد الرحمن بن محمد(ت ٨٠٨ هـ): **كتاب العبر**، تحقيق خليل شحاذة، بيروت ١٩٨١. دار الفكر.

٥- ابن سلام الأباضي: **الإسلام وتاريخه من وجهة نظر أباضية**. تحقيق: ر.ف شفارتز وسالم يعقوب، دار أقرأ، بيروت ١٩٨٥.

٦- ابن الصغير (القرن الثالث الهجري): **أخبار الأئمة الرستميين**، تحقيق وتعليق د. محمد ناصر والأستاذ إبراهيم بحاز، بيروت ١٩٨٦، دار الغرب الإسلامي.

٧- ابن عذاري، أبو عبد الله محمد المراكشي (عاش بعد عام ٧١٢هـ): **البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب**. تحقيق بروفنسال وكولان، دار الثقافة، بيروت ١٩٨٠(ط١).

٨- ابن الفقيه: **مختصر كتاب البلدان**، طبعة بريل ليدن ١٩٦٧.

٩- الإدريسي، أبو عبد الله محمد بن محمد بن عبد الله بن إدريس (ت ٥٦٠هـ): **كتاب نزهة المشتاق في اختراق الآفاق**، منشورات المعهد الجامعي الشرقي

بنابولي. تحقيق: مجموعة من الباحثين، طبعة نابولي -روما(دون تاريخ).
Prostat aqud E.J Brill, Lugduni batavorum (ط٢)

١٠- الاصطخري، ابن إسحاق إبراهيم بن محمد الفارسي (النصف الثاني من القرن الرابع الهجري) **مسالك الممالك**، ليدن ١٩٧٦.

١١- أبو الفدا، عماد الدين إسماعيل بن محمد بن عمر(ت ٧٣٢هـ): **تقويم البلدان**، باريش ١٨٤٠ دار الطباعة السلطانية.

١٢- البكري، عبيد الله بن عبدالعزيز بن محمد بن أيوب(ت ٤٨٧هـ): **المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب** نشره دي سيلان، الجزائر ١٩١١.

١٣- الحسن الوزان (القرن العاشرالهجري): **وصف إفريقية**. الترجمة العربية، الرباط ١٩٨٣، الشركة المغربية لنور النشر المتحدة، ج١.

١٤- الحميري أبو عبد الله محمد بن عبد المنعم الصنهاجي (ت ٧١٠ هـ): **الروض المعطار في خبر الأقطار**. تحقيق إحسان عباس ، بيروت ١٩٨٤ (ط٢)، مكتبة لبنان.

١٥- الدرجيني (القرن ٧هـ): **طبقات مشايخ الأباضية**، تحقيق إبراهيم طلاي ، قسنطينة_الجزائر (دون تاريخ)، جزءان.

١٦- الشماخي، أحمد بن سعيد بن عبد الواحد (ت ١٥٢٢هـ): **كتاب السير**.جزءان، مسقط ١٩٨٧.

١٧- مجموعة من علماء عمان : كتاب السير والجوابات لعلماء أئمة عمان، تحقيق سيدة إسماعيل كاشف، طبعة ١٩٨٦، مطبعة دار إحياء.

١٨- المقدسي: **أحسن التقاسيم**. طبعة ليدن ١٩٦٧.

١٩- مؤلف مجهول (سرحان بن سعيد الأزكوي): **كشف الغمة الجامع لأخبار الأمة**. تحقيق ودراسة وتعليق أحمد عبيدلي، نيقوسيا١٩٨٥، دلمون للنشر.

٢٠- ياقوت الحموي، أبو عبد الله بن عبد الله الرومي: **معجم البلدان**، بيروت (دون

تاريخ) دار الكتاب العربي، ج٣.

٢١- اليعقوبي، أحمد بن واضح بن أبي يعقوب (ت ٢٨٤هـ): **كتاب البلدان**، ليدن ١٨٩١.

ثانياً: المراجع:

٢٢- أحمد إلياس حسين: **الأباضية في المغرب العربي**، مكتبة الضامري للنشر والتوزيع (ط١)، مسقط ١٩٩٢.

٢٣- الباروني: **الأزهار الرياضية في أخبار الأباضية**. طبعة تونس ١٩٨٦، دار بوسلامة للطباعة والنشر والتوزيع.

٢٤- تشانغ زون بيان: **الاتصالات الودية المتبادلة بين الصين وعمان عبر التاريخ**. منشورات وزارة التراث القومي والثقافة، عدد٢١.

٢٥- حامد زيان غانم زيان: **الحياة في الخليج في العصور الوسطى في ضوء مشاهدات الرحالة ابن بطوطة**. دبي ١٩٨٥ دار العلم، الإمارات العربية المتحدة للنشر والتوزيع.

٢٦- دبوز: **تاريخ المغرب الكبير**، القاهرة ١٩٦٣، ج٣.

٢٧- رجب محمد عبد الحليم: **الأباضية في مصر والمغرب وعلاقتهم بأباضية عمان والبصرة**، مسقط ١٩٩٠.

٢٨- رجب محمد عبد الحليم: **العمانيون والملاحة والتجارة ونشر الإسلام منذ ظهوره إلى قدوم البرتغاليين**، مسقط ١٩٨٩ (ط٩).

٢٩- سعيد عبد الفتاح عاشور وعوض محمد خليفات: **عمان والحضارة الإسلامية**. منشورات جامعة السلطان قابوس، مسقط ١٩٩٤ (ط٩).

٣٠- السيابي ، سالم بن حمود: **عمان عبر التاريخ**، منشورات وزارة التراث القومي والثقافة، مسقط، ١٩٨٦ (ط٢).

٣١- عبد الرحمن عبد الكريم العاني: **دور العمانيين في الملاحة والتجارة الإسلامية**

حتى القرن الرابع الهجري، منشورات وزارة التراث القومي والثقافة، مسقط ١٩٨١، سلسلة تراثنا، عدد ٢٦....

٣٢- العقيلي محمد رشيد: **الأباضية في عمان وعلاقتها مع الدولة العباسية في عصرها الأول**. منشورات وزارة التراث القومي والثقافة، مسقط ١٩٧٤.

٣٣- فرحات الجعبيري: **نظام العزابة عند الأباضية الوهبية في جربة**. تونس ١٩٧٥.

٣٤- محمد أبو الفرج العش: **النقود العمانية من خلال التاريخ الإسلامي**. منشورات وزارة التراث القومي والثقافة، سلسلة تراثنا، مسقط ١٩٨٤، عدد ٥٤.

٣٥- محمد عيسى الحريري: **مقدمات البناء السياسي للمغرب الإسلامي**، دار القلم، الكويت ١٩٨٣.

٣٦- محمد ناصر: **دور الأباضية في نشر الإسلام بغرب إفريقية**. مسقط (دون تاريخ) مكتبة الضامري للنشر والتوزيع.

٣٧- محمود إسماعيل: **الخوارج في بلاد المغرب**. بيروت، دار العودة –القاهرة، مكتبة مدبولي ١٩٧٦.

٣٨- محمود إسماعيل: **دراسات في التاريخ والفكر الإسلامي**. القاهرة ١٩٩٤، دار سينا للنشر.

٣٩- ولكنسون: **عمان تاريخاً وعلماء**. ترجمة محمد أمين عبد الله، منشورات وزارة التراث القومي والثقافة، مسقط ١٩٨٠ (ط٢)، عدد ١٠.

ثالثاً: أبحاث ومقالات:

٤٠- الحبيب الجنحاني: "**دور عمان في نشاط التجارة العالمية خلال العصر الإسلامي الأول**"، مجلة المؤرخ العربي، عدد ٢٢، سنة ١٩٨٢.

٤١- السيد عبد العزيز سالم: "**الملاحون العمانيون سادة البحار الجنوبية في العصر الإسلامي**". بحث قدم لندوة "عمان في التاريخ" (مرقون) –جامعة السلطان

قابوس، سبتمبر ١٩٩٤.

٤٢- سحر عبد العزيز سالم: **"عمان وتجارتها مع الشرق الأقصى وشرق إفريقية"**. بحث قدم لندوة "عمان في التاريخ" (مرقون) -جامعة السلطان قابوس، سبتمبر ١٩٩٤.

٤٣- باقر الحسيني : **"الدور الإعلامي والسياسي للنقود العمانية في العصر الإسلامي حتى نهاية القرن الرابع الهجري"**. بحث قدم لندوة "عمان في التاريخ" (مرقون) -جامعة السلطان قابوس ١٩٩٤.

٤٤- سوداي عبد محمد: **"صلات تجارية بين البصرة والمغرب الإسلامي من القرن الثاني الهجري حتى أواخر القرن الرابع"**. مجلة المؤرخ العربي، عدد ٤٣ سنة ١٩٩٠.

٤٥- يوسف غوانمة: **"عمان في كتب الجغرافيين العرب"**. بحث قدم لندوة "عمان في التاريخ" (مرقون). جامعة السلطان قابوس -سبتمبر ١٩٩٤.